

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة



د. طه حسين

# الوَعْدُ الْحَقِيقِيُّ



الاعمال التكربية

٨١



المكتبة المصرية  
المعلمة للكتاب



## لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: صحن الجامع الأزهر

التقنية: ألوان باستيل على ورق

محمد صبرى (١٩١٩ - ٢٠٠٠)

ولد الفنان محمد صبرى بالقاهرة، وتخرج فى كلية الفنون التطبيقية، ثم أكمل الدراسات الحرة بكلية الفنون الجميلة ورسم الأقصر، كما درس بأكاديمية سان فرناندو بمدريداً، وهو يجذب إلى الأسلوب الأكاديمى، ويفصل استخدام خامة الباستيل، مع تعمده إبراز قدرة الصنوه على توصيل المعنى الكامن بداخله

محمود الهندي

# الوعاد الحق

د. طه حسين



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

الوعد الحق

د. طه حسين

الغلاف

والإشراف الفنى :

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرحان

---

## على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب في المعرفة واقتناوه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها في تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ولديها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التي لم تبذل بوقت أو جهد في سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر في متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادي وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع في صدارة البيت المصري بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة في مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيدي أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأنثري الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» في (٢٠ جزء).. مع السلسل المعنادة لمكتبة الأسرة لترفع وتتوسع من موقع الكتاب في البيت المصري تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاماً في عصر المعلومات.

---

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلِفُنَّهُمْ  
فِي الْأَرْضِ كَا اسْتَخْلَفَ النَّبِيِّنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُكُنْ لَهُمْ دِينُهُمْ  
الَّذِي أَرَقَنِي لَمْ وَلِيَدُهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْدُونِي  
لَا يَشْرَكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »  
صَدِيقُ اللَّهِ الْعَظِيمِ

# ١

قال ياسر بن عامر لأخوه مالك والحارث : عودا إن شئنا  
إلى أرض اليمن ، أو أضررنا إن شئنا في الأرض العريضة ؛ فاما أنا  
فقيم ، قد أعجبتني هذه الأرض فلست أعدل بها أرضاً أخرى ،  
ورضيت بهذه الدار فلست أبغى بها بديلا . وما رجلي عن أرض  
وحدث فيها الأمان بعد الخوف ، والقوه بعد الضعف ، والسعه بعد  
الضيق ؛ قال أخوه مالك : بل قل ما رجلي عن أرض فيها هذه  
الفتاة السوداء التي لا تملك من أمرها شيئاً ، ولكنها تملك من أمرك  
كل شيء . قال ياسر : فظنا بي ما شئنا من الظنون ، ولكنني مقيم  
لن أبرح هذه الأرض ولن أتحول عن هذه الدار . قال الحارث :  
بعداً لك من فتي يؤثر الغربة على قرب الدار ، ومفتر على قحطان ،  
وكريشاً على عنس . ويتحلىك ؛ إنك لا تأمن أن تسأم المحسف <sup>(١)</sup>  
وتشغل على ما تكره ، ثم تلتمس العون فلا تجده ، وتبتغى النصیر

---

(١) ساء المحسف أذله

فلا يجبيك إلا من يخذلك ويعين عليك . قال مالك : وإن فتاتك هذه السوداء لم تنجم<sup>(١)</sup> من أرض مكة ولم تنزل من سمائها ، وإنما جُلبت إليها فيما يجلب إليها من الرقيق ، وإن شئت وجدت أمثالمها في كل منزل تنزل فيه ، وإن شئت احتلنا لك فيها حتى تخطفها وتعيش معها آمناً بين بني أبيك وذوى مودتك . قال ياسر : ضعماً هذا الأمر كيف شئنا ؟ فإنقي مقيم لن أبرح هذه الأرض ، ولن أنتحول عن هذه الدار ، ولن أجزي أباً حذيفة عن الحسنة بالسيئة ، ولا عن المعروف بالمنكر ، ولن أرزاه شيئاً في ماله وهو الذي قد آوانا وقرانا وأحسن مثوانا<sup>(٢)</sup> . عوداً إن شئنا إلى أرض اليمن ، واضربنا إن شئنا في الأرض العريضة ، فأماماً أنا فقيم . وما أرى إلا أن لي في هذه الدار شأننا . قال الحارث : شأن الرقيق الذي لا يستكراه على الرق ، وإنما يسعى إليه سعيًا ويمنع فيه إمعاناً !<sup>(٣)</sup> فإن رفق القوم بك وآثروك بالخير فشأن الخليف الذي يُعال ولا يغول . قال ياسر : عوداً إن شئنا فإنني مقيم . قال الحارث لأخيه مالك : دعه فما علمته إلا نكيداً لا خير فيه .

### ورأى الصبح حين أسرف من الغد غلامين يخرجان من مكة

(١) نجم الشيء ظهر وطلع .

(٢) رزاه ماله : أصاب منه شيئاً فنتنه . وآوانا : أنزلنا عنه في منزله وقرانا : أصلانا .

(٣) أمن في الأمر : أبعد بالغ في الاستقصاء .

يقودان راحلة قد وهبها لهم أبو حذيفة بن المغيرة . ويسعى معهما  
 أخوهما ياسر سعى المدح لاسعى منْ أزعج الرجل<sup>(١)</sup> وكان هؤلاء  
 الفتية الثلاثة قد خرجن من دارهم بهمة اليمن يلتمسون أخاً لم  
 فقدوه . فطوفوا في الأرض ما طوفوا ، وبخثروا عن أخيهم ما بخثروا .  
 فلما استيأسوا منه عادوا إلى أرضهم . ومرّوا بمكة أثناء عودتهم .  
 وقد بلغ منهم الجهد ، وأضناهم سفر<sup>\*</sup> غير قاصد<sup>(٢)</sup> . فقال بعضهم  
 البعض : نأوى إلى هذه القرية فنلم بيتها ونسأل آلهها ونصيب فيها  
 حظاً من راحة ، ونسأل أهلها معونة على ما بقى لنا من الطريق .  
 وأتوا إلى مكة وطافوا بالبيت وسألوا الآلهة فلم يجدوا عندها  
 شيئاً : ثم أقاموا في المسجد يتظلون أن تغدو قريش إلى أنديتها .  
 فيمرّ بهم ، حين يرتفع الضحى . أبو حذيفة بن المغيرة المخزوي .  
 فيرى ما أصابهم من الضر . فيضمهم إليه ويكرمهم . كما تعودت  
 قريش أن تكرم الضيف .

وكان أبو حذيفة قد وكل بخدمة هؤلاء الضيف سيدة<sup>\*</sup> بنت  
 خياط أمة سوداء ، في أول الشباب ، عليها من الجمال نضرة<sup>\*</sup> فاتحة  
 بعض الشيء ، وفيها من الشباب خفة ومرح<sup>\*</sup> ونشاط ، وفي لسانها  
 المستعرب عنوية<sup>\*</sup> حسنة الموقع في الآذان والقلوب .  
 فكانت تغدو على هؤلاء الفتية بطبعهم أول النهار : وتروح

(١) أزعج الرجل : عزم عليه وانتقام .

(٢) أضناهم : أمرضهم مأنيتهم . سفر غير قاصد : شاق بهد .

عليهم بطعمهم إذا أقبل الليل ، وتعمل في خدمتهم بين ذلك ، وتتحدى إلهم ، وتسع منهم بين حين وحين ، وكأنها قد وقعت في نفس هذا الفتى فحبست إلية الإقامة بمكة . ومن يدرى ! لعله أن يكون قد تحدث إليها في شيء من ذلك فأحسن منها مثل ما أحس من نفسه : ميل الغريب المستوحش إلى الغريب المستوحش .

وقد هم الفتى أن يحمل نفسه على ما تكره ، ويعود مع أخويه إلى حيث يتتظارها أب شيخ حزين وأم شيخة ملتاعة<sup>(١)</sup> . ولكن الفتى لم يستطع أن يحمل نفسه على ما أراد . وحياة الناس ليست رهنا بما يريدون ، وليس مستجيبة لما يقدرون ، وإنما هي أمور خفية يجريها القضاء ، لا يؤامر<sup>(٢)</sup> فيها أحداً ، ثم يكون لها في حياة الناس من الآثار ما لم يكن ليخطر لهم على بال . والشيء الذي ليس فيه شك هو أن الأخرين قد خرجا من مكة يقودان راحلتهما يُسْمِمان<sup>(٣)</sup> تهامة اليمن ، فصباوا في الدنيا وفي التاريخ ، ولم يعرف أحد عنهم شيئاً ، كما لم يعرف أحد عن أخيهما الصائغ وأبويهما الشعixin شيئاً . وعاد الفتى ياسر بعد أن ودعهما إلى مكة ، فأقام فيها ضيافاً على أبي حذيفة أول الأمر ، ثم حليفاً لأبي حذيفة بعد ذلك ، ثم زوجاً لسمية أمته السوداء تلك . ومنذ ذلك الوقت عرفته الدنيا وحفظه التاريخ .

(١) اتّاع قلبه : احترق من المم والشوق وكانت به لوعة .

(٢) يؤامر : يشارر . (٣) يُسْمِمان : يقصدان .

وذلك أن أبا حذيفة انصرف من ناديه ذات يوم . فلقي وهو رائح إلَى داره ياسراً غيرَ بعيد من المسجد ، فقال له مبتسمًا: ما فعل أخواك يا فتى عنس؟ قال الفتى : آثرا<sup>(١)</sup> قربَ الدار على بعدها ، فعادا إلى قومهما . قال أبو حذيفة : وأثرتَ بعد الدار على قربها . فأقمتَ في مكة ! قال الفتى : بل آثرتُ هذا الحرم الآمن على غيره من مواطن الخوف ، وأثرت جوارَ هذا البيت العتيق على ما في اليمن من ضلال وغَي<sup>(٢)</sup> . قال أبو حذيفة : وماذا تريدين أن تصنعوا في مكة؟ قال الفتى : أنتس القوتَ من مصادره . قال أبو حذيفة : فإنَّ القوت مُيسِّرٌ لك ما بقيت لِي جاراً . قال الفتى : بأبي أنت من سيدِ كريمٍ تُنْزَهُ بِهِ غُزُومٌ وتزداد به قريش وتعزِّزُ به البطحاء ! إنك والله ما علمتُ لسخنيَ النفس رضيَ السيرة ، تحفظ الصائم وتطعم البائع ، وتعطى السائل وتغنى العائل ، وتحمِّي الجار وتغيث الملهوف<sup>(٣)</sup> . قال أبو حذيفة : حسبك يا فتى ! لقد جزيتَ فأربيت<sup>(٤)</sup> ، وإن لأرى فيك ذكاء ولسنا<sup>(٥)</sup> . فأنت جار لي ما أقمت في هذه القرية !

(١) آثر : فضل .

(٢) الفتى : الضلال .

(٣) العائل : الكثير العيال . الملهوف : المزين والمظلوم .

(٤) فأربيت : زدت .

(٥) اللسان : الفسحة .

قال الفتى : لا وعدَكَ ذمٌ<sup>(١)</sup> ، ولكنني أدعوك إلى خطبة سواه بيني وبينك لا تُشْقِّ عَلَيْكَ ولا تخف عنِي : تحييني مما تحمي منه نفسك وأهلك ، وأكون حرباً على من حاربت ، وسلاماً لمن سالت ، وقاية<sup>(٢)</sup> لك ولأهلك من العاديات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . قال أبو حذيفة : فهو الحلف إذن ؟ قال الفتى : نعم ، إن طابت نفسك به . قال أبو حذيفة : فقد طابت به نفسي ، واطمأن إليه قلبي ! فإذا كان الغدُ فوعدنا المسجد . قال الفتى : فإنك من المسجد غير بعيد وما أحب أن نرجحه إلى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم . قال أبو حذيفة : فهم إذن .

وأخذ بيد الفتى ، ورجع أدراجة خطوات . فلما بلغ المسجد قصد الكعبة . قال الفتى : إلى أين ت يريد ؟ قال أبو حذيفة : أريد أن أشهد الآلة على حلفنا . قال الفتى متضاحكاً : فأشهد عليه قومك قبل أن يتفرقوا ؛ فإن الآلة مقيمة حيث هي لا ترجم<sup>(٣)</sup> قال أبو حذيفة : ما رأيت كاليموم في ذكيرياً أربياً<sup>(٤)</sup> . ثم مضى به إلى أندية قريش ، فجعل لا يمر بناد منها إلا قاله : يا معشر قريش .

(١) أي جاوزك ولم يصبك ما تقم به . وهذا من أساليب العرب التي تصطنعها في الدعاء عند الخطاب .

(٢) الوقاية : الوقاية والصون .

(٣) لا تبرح ولا تنتقل .

(٤) الأربيب : الماهر البصير الحاذق .

اشهدوا على أنني قد حالفتُ ياسر بن عامر هذا العنسى . وجعل  
لا يقول ذلك لناد من أندية قريش إلا قالوا له : سعيتَ غيرَ  
مدحوم . وحالفتَ غيرَ ملوم .

فلمَا طوف به على أندية قريش كلها قصد به قصبة الكعبة .  
قال الفتى : إلى أين ت يريد ؟ قال أبو حذيفة : إلى حيث أشهد الآلة  
على حلفنا . قال الفتى متضاحكًا : وبِيَحْكَ أبا حذيفة<sup>(١)</sup> ! أتظن أن  
الآلة لم تسمعك وأنت تشهد الناس ؟ فهي قد سمعت وشهدت  
ورضيت . أم تراها لا تسمع إلا إذا دنوت منها كما يدنو الرجل  
من الرجل حين يريد أن ينابعه ؟ قال أبو حذيفة : ما أرى إلا  
أنني قد حالفت اليوم شيطاناً ! وبِيَحْكَ يا فتى عنـس ! فلما قد ألقـنا  
أن نقيـف من آلهـتنا موقفـ المـتحـدـثـ إـلـيـهاـ المـنـاجـيـ لهاـ . قالـ الفتـىـ :  
فـقـفـ مـنـهاـ هـذـاـ المـوقـفـ سـيـثـ شـتـ ؛ فـلـنـهاـ يـبـنـيـ أنـ تـكـونـ مـعـكـ  
فـكـلـ مـكـانـ . قالـ أبوـ حـذـيفـةـ وـقـدـ أـخـذـهـ شـئـ مـنـ وـجـومـ ،ـ كـانـ  
الفـتـىـ قـدـ رـدـ إـلـيـهـ شـيـئـاـ غـابـ عـنـهـ ،ـ أوـ رـدـهـ إـلـىـ شـئـ غـابـ عـنـهـ :ـ  
فـلـاـ أـقـلـ مـنـ أـنـ نـطـوـفـ بـالـكـعـبـةـ لـيـمـ هـذـاـ الـحـلـفـ سـقـهـ مـنـ الـحـرـمـةـ  
وـالـتـقـدـيسـ . قالـ الفتـىـ : أـمـاـ هـذـاـ فـنـعـ . ثـمـ مـضـيـاـ فـطـوـفـاـ بـالـكـعـبـةـ  
مـاـ شـاءـ اللهـ أـنـ يـطـوـفـ بـهـ ،ـ وـرـاحـاـ<sup>(٢)</sup> إـلـىـ دـارـ أـبـيـ حـذـيفـةـ سـلـيـفـينـ .ـ  
وـلـكـنـ يـبـنـيـاـ مـنـ الـأـمـرـ أـكـثـرـ مـاـ يـكـونـ بـيـنـ الـخـلـيـفـ وـالـخـلـيـفـ .ـ

(١) ربيع : كلمة مدح وتعجب .

(٢) راحا : عاد .

يقول أبو حذيفة للفتى في طريقهما إلى الدار : ويحك يا عنسى !  
 إن لأرى فيك استخفافاً بالهداية وازوراراً عنها<sup>(١)</sup>. أفراك لم تنس آلة  
 عنس بعد ، ولم تردد أن يخلص قلبك لغيرها ؟ . فيقول الفتى : بابي  
 أنت يا أبي حذيفة ! والله ما ذكرت آلة عنس قط فأنساها اليوم  
 أو أستيق ذكرها في قلبي ، وما أعرف أنى غدوت عليها مُضبحة  
 أو رحت إليها مسيأ ، أو آمنت لها بسلطان . قال أبو حذيفة : فقد  
 صبوب<sup>(٢)</sup> إذن عن آلة آبائك إلى إله النصارى أو اليهود ؟ قال الفتى :  
 لقد لقيت أولئك وهؤلاء وسمعت منهم . ولم أفهم منهم ولم أحاول  
 لأن أجادلهم فهمـا . قال أبو حذيفة : فليس لك إله إذن ؟ قال  
 الفتى : لو كنت متخدناً إلهاً لعبدت البحر الذي يسرّعني ويروّعني<sup>(٣)</sup> .  
 أو الشمسـ التي تضيء لي أثناء النهار . أو التحومـ التي تهديني  
 أثناء الليل ، أو السجابـ الذي يطعنني ويسقيني .. ولكن شيئاً من  
 ذلك لا يبلغ نفسي ولا يتحدث إلى قلبي ولا يثير حاجتي إلى العبادة  
 والطاعة والإذعان . فأنا حائر جائر عن القصد<sup>(٤)</sup> ، ألمس المدى فلا  
 أجده إليه سبيلاً ، فأعيش مع الناس مشاركاً لهم في الدنيا مفارقاً  
 لهم في الدين . قال أبو حذيفة : إن لك لشأننا يا فتى عنس . قال

(١) ازور عنه : عدل وانصرف .

(٢) صباً : خرج من دين إلى دين آخر .

(٣) يسعني ويفزعني .

(٤) جار : عن الشيء مال عنه .

الفى : كفيري من الناس . إلا أنى أفك فى هذا كثيراً ولا يفكرون فيه إلا قليلاً .

وبلغا دار أبي حذيفة فأفتقا فيها سائر النهار وشطراً من الليل  
يحضوران في أحاديث الدين والدنيا وفي أحاديث تهامة ونجد والحزاز .  
وقد وقع حب الفى في قلب أبي حذيفة موقعاً غريباً . حتى  
قال لنفسه ولأهلة حين خلا إلى أهله : ما أحببتُ غريباً قطَّ كا  
أحببتُ هذا الفى ، ولو كنتُ متخدناً ولداً لاتخذته ولداً .

٣

وأقام ياسر ما شاء الله أن يُقْيم ضيقاً على حليفه أبي حذيفة .  
يندو إلى المسجد مصباحاً فيقول لقريش ويسمع منهم . ويروح  
إلى الدار بعدَ أن تزول الشمس ، فلا يقيم فيها إلا ريثما يصيغ  
 شيئاً من طعام وراحة . ثم يخرج فيمشي في الأسواق . ويتعرف  
أمر الناس ، ويلتمسن أسباب الرزق ؛ حتى إذا يسرت له الوسائل  
للعمل والكسب أراد أن يتحول إلى دار له ، وأذن<sup>(١)</sup> أبي حذيفة  
بذلك . فلم ير أبو حذيفة بذلك بأساً . ولكنه رأى الفى متربداً  
في نفسه . لا يقدم قلبه إلا ليحجـ ، وهو يجـيل طرفه في الدار

---

(١) آذنه أعلمه .

فعلَ من يجد في التحول عنها مشقة وحزناً ، قال أبو حذيفة : إنَّ لِأرَاكَ مرتداً محزوناً يا فتى ، وما أعرف أنَّ داري قد ضاقت بك أو أنَّ أحداً من أهلها قد نالك بعكره ، فما يمنعك أنْ تقيم فيها كما أقمت إلى الآن ، حتى يتسع لك العيش وتتصل بك أسبابه متبينة مطمئنة ؟ قال الفتى : لا والله يا أبا حذيفة ما أنكرتني دارك ولا أنكرتها ، وما لقيت من ضيافتك إلا خيراً ، ولكن لي في دارك أرباً<sup>(١)</sup> قد نكثت أظن أنَّى أستطيع السلوَّ عنه ، ثمَّ تبين لي أنَّ ليس لي إلى هذا السلو سبيل . قال أبو حذيفة ، وقد أخذني العجب : لك في هذه الدار أرب ! وما عسى أن يكون ؟ فأطرق الفتى قليلاً : وغشيت وجهه سحابة رقيقة عمراء<sup>(٢)</sup> ، ثمَّ رفع رأسه وكأنه قد أجمع أمره على شيء عظيم : وقال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من الجرأة . وفيها كثير من الحياة : أمتُّك هذه السوداء التي تسمونها سُميةَ . قد وقع حبها في قلبي يا أبا حذيفة ، ولا والله ما كانت مني إليها ريبة في نظر أو حديث . قال أبو حذيفة : فتريد أنْ أهبه لك ؟ قال الفتى : لا والله لا أرزُوك في مالك<sup>(٣)</sup> . قال أبو حذيفة : فإنك لا ترزقني في مالي شيئاً ، وإنما هي أمَّة والإماء في الدار كثير . قال ياسر : لا والله لا أرزُوك في مالك ، وما آثرتُ الحلفَ على

(١) الأرب : الخاتمة .

(٢) هنا كناية عن الخجل .

(٣) لا أرزُوك في مالك : لا أصيـبـ مـهـ شـيـئـاً فـاقـصـهـ .

الجوار إلا تخفَّ مئونتي عليك ، وما أحبَّ أن تقول مخزوم أقام  
 في الدار مقام الضيف ، ثم لم يتحول عنها كما أقبل عليها . قال  
 أبو حذيفة : فإن شئت زوجتك منها . قال الفتى وقد أغرق في  
 ضحك متصل : هيبات يا أمي حذيفة<sup>(١)</sup> أتريد أن ألدَّ لك الإماماء  
 والعيبد ؟ قال أبو حذيفة وقد ضرب على كتف الفتى بيده : ويلك !  
 لقد عنيتني منذ اليوم ، تزوجها وما ولدت لك من ولد فهو حر .  
 قال ياسر : بأبي أنت من سيد كريم ! ألم أقل إنك فخر مخزوم  
 وزينة قريش وعز البطحاء . قال أبو حذيفة : حسبك<sup>(٢)</sup> ؛ فقد  
 أسرفت في الثناء . أقبل على إذا كان المساء فترُوْج ، ثم تحول  
 بأهلك إلى دارك الجديدة ، وغضى ألا ترى فيها إلا خيراً .

ولم يكدر ياسر يتحول بسمة إلى داره حتى غفل عنه التاريخ  
 دهرًا طويلاً ، كما تعود أن يغفل عن الدهماء<sup>(٣)</sup> حين تحييا وحين تموت  
 وحين تُلْمَّ بها الأحداث وتختلف عليها الخطوب . وماذا عسى أن  
 يصنع التاريخ بفتى من عامة الناس ودهمائها ، ليس له خطير في  
 مكة ولا مكانة في قريش ، وإنما هو عام أجنبى حليف ، يعيش  
 كأمثاله من هذه الأخلاط التي كانت تعيش في مكة ساعية إلى  
 رزقها أيسر السعى ، تكسب القوت ما وجدت إليه سبلاً ، فإن

(١) هيبات : اسم فعل معناه يهدى .

(٢) حسبك : كفلك .

(٣) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

أعياها كسبه وجدت حاجتها عند أحلافها من سادة قريش . وهي مع ذلك آمنة على أنفسها وعلى ما أتيح لها من مال ، لا يudo عليها عادٍ ولا يسعى إليها مكروه .

وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، أستقراطياً لا يحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة . وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، ضئينا<sup>(١)</sup> بخيلاً ومستكيراً متعالياً ، يحفل بالسادة في تحفظ ويلتفت إلى القادة في كثير من الاحتياط ، لا يسجل من أمرهم الا ما كان له شأن أو خطر . وأية ذلك أنه لم يسجل من أمر قريش في تلك العصور إلا أطرافاً يسيرة ضئيلة لا تكاد تظهرنا من أمرهم على شيء ؛ لأن التاريخ كان يراها أهون شأنًا وأيسر خطراً من أن يمنحها عنایته . وكانه كان يرى قياصرة الروم وأكسرة الفرس وقادة أولئك وهؤلاء وسادتهم أحقّ بعنایته وأجلد برعنایته وأحرى أن يقف عندهم ويبلو<sup>(٢)</sup> أعمالهم ويسجل أتعابهم . فاما سادة قريش وقادتها وذوي المكانة في هذه الأحياء العربية التي لا تحسن كتاباً ولا حساباً ، ولا تسخر الزمان والمكان لأمرها ، وإنما تختلس حياتها من الزمان والمكان والأحداث والخطوب اختلاساً ، فلم يكونوا أحرباء<sup>(٣)</sup> لأن ينظر التاريخ

(١) الضئين : البخل .

(٢) يبلو : يختبر .

(٣) أحرباء : جميع حرث ، أي ملوك وملوك .

إليهم لا شرراً<sup>(١)</sup> ، وأن يسجل من أمرهم إلا ما فيه تفكهه للأجيال المقبلة وترويجُ عليها وتسلية لها عن بعض ما يشغلها من الهم ، فكيف بالدهماء التي لا تملك المال ولا تصرف التجارة ولا تقوم بأمر الآلة ولا تدبر السلطان ، وإنما تسقط حياتها تسقطاً وتتلقطها تلقطاً ، وتعيش مما يلقي إليها الأغنياء والسراة من الفتات<sup>(٢)</sup> .

وكان ياسر من هذه الدهماء ؛ فلم يخفل به التاريخ ولم يلتفت إليه ، ولم يصحبه في حياته الطويلة ، ولم يسجل غدوة على الماس الرزق ، ولا رواحة على أهله بما اكتسب منه . حتى كان يوم "أكْرَهَ" التاريخ فيه على أن يلتفت إلى الدهماء أكثر مما يلتفت إلى السادة والقادة ، وعلى أن يسجل من أمر ياسر وأمثاله من عامة الناس أكثر مما يسجل من أمر حلفائه من بني مخزوم وأمثالهم من الملاو والساسة في قريش . في ذلك اليوم نظر التاريخ فإذا أحداثٌ ضئيلة تحدثت لا يكاد الناس يأبهون<sup>(٣)</sup> لها ولا يُعْتَنُونَ بها ، ولكنها لا تكاد تحدث حتى تتحقق لها القلوب وتتفتح لها العقول وتضطرب لها الفهائر ، وحتى تعرف الدهماء نفسها وتشعر بحقها وتطمح إلى هذا الحق وتسعى إليه جادة لا وانية<sup>(٤)</sup> ولا فاترة ، وحتى ينكر الملاو<sup>(٥)</sup> من قريش كل

(١) نظر إلى شرراً : نظر إلى بحالب عينه مع إعراض .

(٢) السراة : نجع سرى ، وهو صاحب المروءة في شرف .

(٣) لا يأبهون لها : لا يهتمون بها .

(٤) والنية ضئيلة .

(٥) الملاو من قريش : أشرافهم وعلوّهم .

شيء : يرون المستضعفين في الأرض وقد سرت نفوسهم إلى أشياء لم تكن تسمى إليها ، وطمعت قلوبهم في أشياء لم تكن تطمع فيها . وانطلقتُ أسلتهم بأشياء لم تكن تنطلق بها . ويرون الرقيق وقد طمحوا إلى الحرية واشتاقوا إليها وهاموا بها وجعلوا يتحدون فيها بغيرهم كأنهم ليسوا أقلَّ من سادتهم استحقاقاً للحياة ، ولا استهلاكاً<sup>(١)</sup> للكرامة ، ولا ارتفاعاً عما ينقص ، ولا تزهاً عما يشين<sup>(٢)</sup> . كل قد خلق جسمه من تراب ، وكل يصير جسمه إلى تراب ، لا تباين أجسامهم حين تولد ، ولا تباين أجسامهم حين تموت ، وإنما تباين نفوسهم وقلوبهم وضارتهم بين ذلك ، بما تقدم من التغير ، وما تتجنب من الشر ، وبما تتنى من الإثم ، وما تصطنع من البر والمعروف . ثم يتحدون بأن نفوسهم وقلوبهم وضارتهم تباين بعد الموت بما تلقى من جراء أعمالها ، فلن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره . ثم يتحدون فيها بغيرهم بأن حرية الحر لا تفضله على غيره من الناس إلا إذا آمن واتقى وعمل عملاً صالحاً ولم يؤذ الناس بيده ولا بلسانه ولا بقلبه ، وأن رقَّ الرقيق لا يخسأه<sup>(٣)</sup> عن غيره من الناس ما دام يؤمن ويتقى ويسعد في القول والعمل ويرى قلبه من الإثم وضميره من السوء . ويتحدون فيها بغيرهم بأن الحرية والرق ، والغنى

(١) استهلا : استهلاً.

(٢) يشين : يهيب .

(٣) لا يخسأه : لا يحصله خسارةً منها .

والفقر ، والقوة والضعف ، «أعراض» تعرض وتزول . ليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض ، ولا أن تسود<sup>(١)</sup> بعضهم على بعض . ولا أن تحكم بعضهم في بعض . وإنما يمتاز الناس بالخير والمعروف والتقوى ، ويسود الناس بالسلطان الذي لا يأتينهم من مولد ولا من شراء ، وإنما يأتينهم من رضا الناس عنهم وثقة الناس بهم وإيمان الناس لهم . ويتحكم الناس بأمر يأتينهم من السماء قد فصل لهم الخير والشر ، وبين لهم العرف والنكر ، وميّز لهم الحلال والحرام ، لا بهذه التقاليد التي توارثوها عن آبائهم ، ولا بهذه السنن التي حفظوها عن قديمهم .

بهذا كله كان الرقيق والمستضعفون في الأرض يتحدّتون إذا لقي بعضهم بعضاً أو خلا بعضهم إلى بعض . وبهذا كله جعل الرقيق والمستضعفون في الأرض يتسامعون ثم يتداعن ثم يتواصرون . وبهذا كله رُوعَ الملاً من قريش ذات يوم ، فثار ثائره ، وثار فائزه ، وأجمع أمره أن يطْنَى هذه الجذوة قبل أن ينتشر لها فلا يبقى ولا يذَر<sup>(٢)</sup> . ونظر التاريخ ذات يوم إلى مكة فرأى فيها هذه الأحداث الصغار الكبار ، وسمع فيها هذه الأحاديث التي كانت تهمس بها الأفواه وتصبِّح بها الصيائر والقلوب والمنفوس . ورأى التاريخ فيما رأى ياسراً ذلك الفتى قد تقدمت به وزوجه السن ، وقد مات حلِيفه

(١) تسود: تجعلهم سادة .

(٢) يذَر: يتركه .

أبو حذيفة ، وقد رُزق من سمية ثلاثة أبناء قتل أحدهم في خطوب  
مجهولة ، ويق الآخران يعيشان كما كان أبوهما يعيش .  
ويجب أن نسجل أن التاريخ لم يبحث عن ياسر ولا عن بنيه .  
ولاما أقبل ذات يوم على مكة ليمر بعض ما يجري فيها من الأحداث :  
فلم يَكُنْ يبلغ المسجد حتى رأى أندية قريش هائجة مائحة تتحدى  
عن محمد وعن دعوته وعمن تبعه من المستضعفين والرقيق ، وقد  
تُذَكِّرُ دارُ أرقَمَ بن أبي الأرقَمَ التي اتخذها محمد لنفسه ولأصحابه  
نادياً ينشر منه دعوته هذه الراية المروعة ؛ فتحول التاريخ عن  
هذه الأندية الصاخبة إلى دار ابن أبي الأرقَمَ ليمر محمد وأصحابه  
ويسمع منهم . ولم يكُنْ يبلغ هذه الدار حتى رأى على بابها رجلين :  
أحدهما أسود طوَالٌ ترتفع قامته في السماء ، والآخر أصهبٌ ربعة<sup>(١)</sup> .  
وما يتحاوران ؛ يقول الأسود لصاحب الأصهب : ما تصنع هنا ؟  
فيقول له الأصهب : وأنت ماذا تصنع ؟ فيجيب الأسود : أريد  
أن أدخل على محمد فأسمع منه وأعلم علمه . فيقول الأصهب :  
وأنا أيضاً أريد ذلك . ثم يدخل الرجال فيسمعان ويُسْلِمان . ويعرف  
التاريخ أن الأسود الطوَال هو عمار بين ياسر ، وأن الأصهب الربعة  
هو صهيب بن سينان . ومنذ ذلك الوقت يذكر التاريخ ياسراً ذاك  
الفقي العتئي ؛ ويتبع خطوات ابنه عمار .

(١) أصهب : أحمر اللون أو أثقره . والربعة من الرجال : من يكون بين  
الطاول والقصر .

أصبح ياسر ذاهلاً واجماً مشرداً. اللبّ . قد أنكر نفسه وأنكرته زوجه سمية ؛ فقد تعودَ أن يفتق من نومه قبل أن تنشر الشمس ضوءها على بطيحاء مكة وجبارها . فلا يُرِيح ولا يستريح . وإنما يضطرب في الدار ذاهباً جائياً كثير الحركة موفور النشاط . يتحدى إلى نفسه بصوت مرتفع حتى يوقظ النائمين من أهله . ولده . وهم ينكرؤن نشاطه وحديثه في أنفسهم . وربما أنكروا حركته ونشاطه بالأسئلتهم . وطلبو إلية شيئاً من سكون وسكتون . فكان يعيث بهم ويُسخر منهم . ويلاع عليهم بمحديثه وحركته . ويؤذّهم<sup>(١)</sup> مداعياً لهم حتى يُصدّهم عن النوم أو يصدّ عنهم النوم .

وكانت زوجه سمية أشدّ أهل الدار ضيقاً بهذه الحركة وإنكاراً لهذا النشاط ؛ فلم يكن شيء أحبّ إليها من أن تستأنخر في نومها ما وسعها ذلك ، كأنها كانت تتصور ما يتظاهرها في الدار من عمل ستتجدد فيه من الجهد ما يضفيها ويشقّ عليها . فكانت تحب أن ترجي ذلك ما وجدت إلى إرجائه سبيلاً . ولكن الشیخ التراث المكتاثر الشیط لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره أن يستيقظ الناس من حوله نیام : فلم يكن يستقرّ له قرارٌ ولا يهدأ له بالٌ حتى يثور أهل الدار

(١) أبه : عنه ولاته .

جميعاً من نومهم ويلحدوا معه في حديثه الذي لا ينفهي ، يسمعون له كثيراً ويقولون له قليلاً .

وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشد الاختلاف ، تروع بغرابتها وطراحتها للسوق إلى الاستزادة والرغبة في الاستطلاع . فقد كان ياسر لا ينفك يروي غرائب الأخبار وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد في هامة اليمن ، وعن أسفاره تلك الكثيرة في تجارة غزوم إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً وإلى ما وراء الشام والعراق أحياناً . ولم يكن أحد أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها<sup>(١)</sup> . ولم يكن أحد أشد منه تعلقاً بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ، يشى عليهم ، ولا يغففهم من نقهـة اللاذع<sup>(٢)</sup> الذي كان يصادف هوئـي في نفوس السامعين له من أهله وبنيه . وأى شيء أحب إلى دماء الناس من التحدث عن السادة والقادة بما يسر وما يسوء ، وبما يرضي وما يُسخط ! وكان ياسر إذا أخذ في الحديث عن قريش أمعن فيه ، واستهوى أفتذه ساميـعـه .

واستيقنت سمية أنه لن يخرج من الدار إلا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . ولكنـه أفاق من نومه ذلك اليوم ، فلم يثرـ من مضجعـه ، ولم يتحرك لسانـه في فـه ، وإنـما ظلـ مستلقـياً مكانـه لا ينشط ولا يقول ، ولا يدعـه غيرـه إلى نشاط أو قول .

(١) المناقب : المقابر . والمثالب : المعائب .

(٢) اللاذع : المؤلم ، القارص .

وأخذت سمية حظّها من نوم الصباح كما لم تتعود أن تأخذه قط . ولكنها مع ذلك أنكرت هدوء هذا الذي لم يتعود هدوءاً . وصمتَ هذا الذي لم يألف صمتاً . فتنقُيلٌ عليه وقد تكلف وجهها الابتسام والرضا ، وأضمر قلبها العبوس والخوف . فتسأله ما خطبه ؟ وهل يوجد شيئاً يذكره ؟ فيجيبها بصوت خافت : ليس بي بأس : ولست أجد ما أكره . قالت سمية : بالكل لا تملأ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً ؟ قال ياسر وقد جعل صوته يمليء ويقوى شيئاً فشيئاً : ويخلُك يا سمية ! كيف السبيل إلى إرضائك ؟ إنْ أنشط قلت : هلاً خلّيت بيني وبين النوم ، وإنْ أسكنْ قلت : هلاً ملأت الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً<sup>(١)</sup> ! أما إنْ لم أهدأ حبّاً في المدورة . ولمْ أسكنْ لإثارةً للسكون .. وإنما رأيت رؤيا روعتني عن النشاط والقول . قالت سمية وقد ثاب<sup>(٢)</sup> الأمان إلى قلبها وصرخ وجهها الأسود المتجمد عن رضا لا تكلف فيه — قالت وهي متضاحكة : فهلاً رأيت من آخر كل ليلة رؤيا تروّعك وتشغلك عن النشاط والقول ! ذلك أجدرُ أن ينبع لي من الراحة والدعة ما أنا في حاجة إليه . قال ياسر — وقد هم شفرو أن يبتسم وجهه أن يشرق؛ ولكن الرزق لم يلبث أن ردَه إلى الجيد والصرامة — قال : ويخلُك يا سمية ! إنها

(١) الصحيح والمصحح : السياح والبلبة .

(٢) ثاب : عاد .

رؤيا ليست كالرؤى ، وما أرى إلا أنّا شاؤنا ! فما أكثر ما عرضتْ  
 لـ الأحلام ، وما أكثر ما انصرفتْ عـى . بن أفيق ! ولكن هذه  
 الرؤيا قد تركت في قلبي وعقلـي وأمام عينـي صـورة مـلحة لا تـريد أن  
 تـريم <sup>(١)</sup> . قـالت : فـقصـصـ رـؤـيـاـكـ ، لـعـلـ حـدـيـثـكـ عـنـهاـ أـنـ يـرـيحـكـ مـنـهاـ  
 قال يـاسـرـ : هـيـهـاتـ ! ثـمـ اـسـتـوـيـ جـالـسـاـ فـبـطـءـ وـأـخـذـ يـصـنـ رـؤـيـاهـ  
 مـسـتـأـنـيـاـ . وـلـمـ يـكـدـ يـمـضـيـ فـحـدـيـثـهـ قـلـيلـاـ حـتـىـ رـوـعـتـ زـوـجـهـ .  
 وـهـتـ أـنـ تـكـفـهـ عـنـ الـحـدـيـثـ ، لـوـلاـ بـقـيـةـ مـنـ شـجـاعـةـ وـفـضـلـ مـنـ  
 حـيـاءـ . قـالـ يـاسـرـ : لـنـ أـقـصـ عـلـيـكـ رـؤـيـاـ ، وـلـكـنـ سـأـصـفـ لـكـ  
 صـورـةـ رـأـيـهـاـ نـائـمـاـ وـماـ زـلتـ أـرـاهـاـ يـقـظـانـ : وـادـ لـيـسـ بـالـمـسـرـفـ فـيـ  
 السـعـةـ وـلـاـ بـالـمـسـرـفـ فـيـ الصـيـقـ ، وـإـنـماـ هـوـ وـسـطـ بـيـنـ ذـلـكـ ، . يـأـخـذـ  
 جـانـبـيـهـ جـبـلـانـ عـظـيمـاـ يـرـقـ إـلـيـهـاـ الـطـرفـ وـلـكـنـ لـاـ يـلـغـ أـعـلـاهـاـ .  
 وـقـدـ تـشـقـنـ الـجـبـلـانـ عـنـ فـجـوـاتـ عـمـيقـةـ أـرـاهـاـ وـلـاـ أـحـصـيـهـاـ . وـالـنـارـ  
 مـنـ هـذـهـ الـفـجـوـاتـ يـسـعـيـ بـعـضـهـاـ إـلـىـ بـعـضـ . حـتـىـ تـلـقـيـ وـحـىـ يـسـيلـ  
 بـهـاـ الـوـادـىـ كـمـاـ يـسـيلـ بـالـمـاءـ . وـفـيـ أـقـصـىـ هـذـاـ الـوـادـىـ مـنـ أـمـاـىـ مـرـوـجـ  
 خـضـرـ تـجـرـىـ فـيـهـاـ مـيـاهـ عـذـابـ لـاـ تـبـلـغـهـ هـذـهـ النـارـ ، وـإـنـماـ تـقـفـ  
 قـبـلـ أـنـ تـنـتـيـ لـيـهـاـ ، وـأـنـتـ قـائـمـةـ فـيـ هـذـهـ المـرـوـجـ الخـضـرـ قـدـ رـدـ  
 عـلـيـكـ شـيـابـكـ وـأـشـرقـ وـجـهـكـ حـتـىـ كـاـئـنـهـ الشـمـسـ : وـأـنـتـ تـبـتـسـمـ  
 لـيـ وـتـدـعـيـ بـالـلـحـظـ وـالـلـفـظـ . وـتـشـيرـيـنـ إـلـيـهـ بـالـبـنـانـ . وـمـنـ وـرـائـيـ

(١). تـرـيمـ : تـبـدـ وـتـزـيدـ .

umar يخنثى على أن أقتجم النار ، ويقول في صوت يشيع فيه الحنان :  
 أقدم يا أبت ، فليس عليك يأس ، إنما هي لفحة أو لفحات<sup>(١)</sup>  
 ومن ورائها هذه الرياض الخضر ! سمية قد ردّ عليها شبابها .  
 وشبابك ينتظرك إلى جانبها ليردّ عليك . وأنا أسمع دعاءك ، فأهم  
 أن أقتجم النار ، ولكن لفتحها يواظنى . ثم يصرب الشيخ جبهته بيده  
 صالحًا : ويلاه ! إن لأجد مس النار ؛ قالت سمية وقد أقبلت  
 عليه مرتابة ملائكة : ويلك ! لا يأس عليك ! قم فأصب شيئاً  
 من طعام ، ثم اخرج فاقصص . رؤياك هذه المروعة على بعض  
 كهاننا لعلهم أن يجدوا لها تأويلاً .

ولم يُقبل المساء من ذلك اليوم حتى كانت رؤيا ياسر قد  
 عبرت نفسها ، وحتى وجد ياسر مس النار .

أقبل ياسر يسعى إلى المسجد ، حتى إذا بلغ نادى بنى مخزوم  
 ألى التحية وجلس ، ولكنه لاحظ أنّ وجوه القوم لم تهشّ له ،  
 وأنّ أصواتهم لم ترفع بالسلام عليه ، وإنما ردّ بعضهم عليه تحية  
 فاترة ، ومضى بعضهم في سديده كأنه لم يلت إلى هذا الطارئ بالاً .

(١) لفتح النار : أصابت وجهه وأسرقته .

فأَسْرَ يَاسِرَ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ الْمُوْجَدَةَ<sup>(١)</sup>، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُطِلْ عَدَهَا الْوَقْفُ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي مُخْزُومٍ صِلْفًا<sup>(٢)</sup>. وَأَنْفَقَ وَكْبَرْ يَاءَ . وَلَوْلَا وَفَاقُهُ بِحَافَّهُ لِمَكَانِيْ أَبِي حَذِيفَةَ مِنْ قَلْبِهِ ، لَتَحْوِلَ عَنْ مُخْزُومٍ إِلَى حَتِّيْ آخِرَ مِنْ أَسْيَاءِ قَرِيشَ . وَلَكِنَّهُ وَقَى لِأَبِي حَذِيفَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا وَقَى لَهُ أَثْنَاءَ حَيَاَتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ هَذَا الْوَقَاءِ بَدْ<sup>٣</sup> ؟ فَأَبْيَوْ حَذِيفَةَ قَدْ حَفَظَهُ بَعْدَ ضَيْسَعَةَ ، وَأَمْتَهَ مِنْ خَوْفِ ، وَزَوْجِهِ سَيِّدَةَ أَحْبَابِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَتْرَاهُمْ عَنْهُ ؛ وَأَعْتَقَ لَهُ وَلَدَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يُولَدُوا ، ثُمَّ لَمْ يَمْتَحِنْ حَتِّيَ رَدَ إِلَى سَيِّدَةِ حَرِيَّتِهَا ، فَأَصْبَحَتْ دَارُ يَاسِرَ دَارَ حَرِيَّةَ كَامِلَةَ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَارًا نَصِيفَهَا حَرُّ وَنَصِيفَهَا رَقِيقَ .

وَكَانَ يَاسِرَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى نَادِيِّ مُخْزُومٍ . وَفِي نَفْسِهِ أَنْ يَقْصُ عَلَيْهِمْ رَؤْيَاَهُ تِلْكَ الَّتِي أَهْمَتَهُ وَرَوَّعَتَهُ ، يَطْرُفُهُمْ بِهَا مِنْ جَهَّةَ ، وَيَلْتَمِسُ حَنْدَمَهُ لَهَا تَأْوِيلًا مِنْ جَهَّةَ أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمُ الْفَتُورَ وَالْإِعْرَاضَ أَسْكَ لِسَانَهُ فِي فَهِ ، وَجَلَسَ صَامِتًا لَا يَقُولُ شَيْئًا . وَكَانَتْ مُخْزُومَ قَدْ عَوَدَتْ يَاسِرًا أَلَا تَرَاهُ فِي نَادِيِّ مِنْ أَنْدِينَهَا أَوْ دَارَ مِنْ دُورَهَا إِلَّا دَاعِبَتْهُ وَأَثَارَتْ نَشَاطَهُ لِلْحَدِيثِ . وَلَكِنَّهَا تَلَقَّتْهُ فِي هَذَا الضَّحْنِيِّ فَاتَّرَهُ عَنْهُ تَكَادُ تَنْكَرُهُ ، لَا تَسْأَلُهُ حَدِيشًا لَا تَسْوَقُ إِلَيْهِ حَدِيشًا . وَلَوْلَا أَنَّهُ تَعَوَّدَ أَنْ يَسْتَأْنِي<sup>(٤)</sup> بِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ حَتِّيَ يَشْبُوا إِلَيْهِ فَيَعْبَثُ بِكَبْرِيَّاهُمْ

(١) الْمُوْجَدَةُ : النَّفْسُ .

(٢) الْصِّلْفُ : الْعَجَلُ وَالْأَدْعَاءُ وَالتَّكْبِيرُ .

(٣) اسْتَأْنَفَ : تَنْتَرُ وَتَرْفَقُ .

ويسعهم ما لم يكونوا يحبون أن يسمعوا ، لانصرف عنهم إلى ناد آخر من أندية قريش . ولكنه أقام صامتاً مستائياً يدبر في نفسه الانتقام من هذا الفتور . على أنه لم يتضرر طويلاً قبل أن يساق إليه الحديث ؛ فهذا عمرو بن هشام يسأله فجأة : ما أخرك اليوم عنا يا ياسر ؟ قال ياسر مداعباً: فقد كنتُ في حاجة إلى إني<sup>(١)</sup> يا أبي الحكم ؟ قال عمرو بن هشام وهو يكتم الغيظ في نفسه : أجل ، كنتُ في حاجة إليك لأسألك عن شيء عمي<sup>(٢)</sup> على من أمرك . قال ياسر: وما ذاك ؟ قال عمرو بن هشام: ذاك أني لم أرك قط تقرب<sup>(٣)</sup> إلى آهتنا ، ولم أسمعك قط تذكرها بخبر . قال ياسر متضاحكاً: فهل سمعتني قط أذكركم بسوء ؟ وهل رأيتني قط آتني من الأمر ما يؤذيها ؟ قال عمرو بن هشام : فهي إذن آهتنا نحن ، وليس منك ولست منها في شيء ؛ قال ياسر : وما تُريد إلى ذاك ؟ قال عمرو ابن هشام وقد ظهر الغضب في وجهه وفي صوته جيئاً : أريد أن أعرف منْ هو معنا ومنْ هو علينا ؛ فقد آنَ لكلَّ من أقام بعكة أن يصرح عن ذات نفسه وأن يبدى دخيلة ضميرة . ولقد غفونا لأخلافنا عن كثير ، ولكننا لن نغفو لهم منذ الآن عن شيء . قال

(١) الإف : التأخير والإبطاء ، أي في حاجة إلى أن أتأخر وأبطئه .

(٢) عمي عليه الأمر : التبس وخفي .

(٣) تقرب : تقدم القرابين ، والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها .

ياسر : أَمْسِكْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ أَبَا الْحَكْمِ ! فَإِنَّكَ لَمْ تَرَ مِنِي وَلَمْ يَرْ  
 قَوْمَكَ مِنِي سَوْمًا مِنْذَ حَالَتْ عَمَّكَ أَبَا حَذِيفَةَ عَلَى أَنْ أَكُونَ سَلِيمًا  
 لِمَنْ سَالَمْتُ وَحَرَبَأَ عَلَى مَنْ حَارَبَتُ . وَلَنِي لَأَسْمَعَ الْآنَ مِنْكَ حَدِيثًا  
 لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهُ مِنْذَ أُوتِتَ<sup>(١)</sup> إِلَى حَرَمَكُمْ هَذَا . قَالَ عُمَرُ بْنُ هَشَامَ وَقَدْ  
 اتَّدَعَ فِي ضَحْكٍ يَصُورُ الْفَيْظَ أَكْثَرَ مَا يَصُورُ الرَّضَا : فَأَنْتَ حَرَبٌ  
 عَلَى أَبْنَكَ شَمَارٌ إِذْنَ مِنْذِ الْيَوْمِ ؟ قَالَ يَاسِرُ : أَبِنْ أَبَا الْحَكْمِ ؛ فَلَنِي  
 لَا أَفْهَمُ عَنْكَ مِنْذِ الْيَوْمِ شَيْئًا . قَالَ عُمَرُ بْنُ هَشَامَ : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ  
 أَبْنَكَ قَدْ صَبَأَ<sup>(٢)</sup> أَمْسِ وَأَمْنَ لَهُمْ وَأَحْبَابَهُ ؟ هَنَالِكَ صَعِقَ يَاسِرُ ،  
 فَانْعَقَدَ لِسَانُهُ وَاصْفَرَ وَجْهُهُ وَجَعَلَ جَبِينَهُ يَنْخَصِدَ<sup>(٣)</sup> عَرَقًا . وَهَنَالِكَ  
 جَعَلَ سَادَةَ عَنْزُومَ يَتَقَارَبُونَ نَظَرَاتِ سَرَايَا فِيهَا مِنَ الْعَجَبِ أَكْثَرَ  
 مَا فِيهَا مِنَ السُّؤَالِ . وَهُمْ عُمَرُ بْنُ هَشَامٌ أَنْ يَتَكَلَّمُ ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ  
 أَبْنَ الْمَغِيرَةَ : حَسِبْكَ يَا أَبْنَ أَخِي ! ارْفَقْ . بِهَذَا الشَّيْخِ فَإِنَّكَ قَدْ تَرَى  
 مَا نَزَلَ بِهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَائِزِ<sup>(٤)</sup> أَبْنَهِ شَيْءٌ ؛ فَقَدْ جَاوزَ أَبْنَهُ سِنَّ  
 الْأَرْبَاعِينَ .

وَجَعَلَ السَّادَةَ مِنْ عَنْزُومَ يَعِدُونَ عَلَى عُمَرُ بْنُ هَشَامَ مَقَالَةَ  
 الْوَلِيدِ . وَجَعَلَ رُشْدُ يَاسِرَ يَثْوِبُ إِلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ قَلِيلًا .

(١) أَوْيَ الْبَيْتِ وَالْبَيْتِ : نَزَلَ فِيهِ .

(٢) صَبَأً : خَرَجَ مِنْ دِينِهِ إِلَى دِينِ آخَرَ .

(٣) يَنْخَصِدَ عَرَقًا : يَسْلِلُ عَرَقًا .

(٤) الْجَرَائِزُ : جَمِيعُ جَمِيعِهِ ، وَهِيَ اللَّنْبُ الْمُبَلَّغُ بِهِ .

فلما آنس من القوم صمتاً قال لعمرو بن هشام : بئس ما لقيتَ  
 به حليفك يا أبا الحكم ! إن لم أمر عماراً أمس ، ولم أمره اليوم .  
 ولم أعرف ما كان من أمره منذ فارقته . وإنك لتضع العُنْفَ في غير  
 موضعه وتلوم غير ملوم . فهلا عَنِيتَ بالأرقم بن أبي الأرق ، وهو  
 مثلث سيد من سادات مخزوم ، وهو قد صبأ قبل أن يصباً عمار  
 إن كان عمار قد صبأ ، وهو قد جعل داره نادياً لحمد بلق فيها أصحابه  
 وينشر منها دعوته ويدرك فيها آهلكم بما تكرهون ! ولكنك خفت  
 الأرقم بن أبي الأرق ؛ لأن بنى أبيه يقومون دونه<sup>(١)</sup> إن أردته بمكروه .  
 فاما حليف عملك أبي حذيفة فليس هناك ! فلو قد كان أبو حذيفة  
 حيّاً لفكرت وقد رت قبل أن تلقان هذا اللقاء . قال ذلك ونهض  
 متأفلاً حزيناً منكسر النفس ؛ فمضى إلى داره وترك بنى مخزوم  
 يتلامسون .

## ٦

ولم يكدر يبلغ داره ويسلّج من بابها حتى أنكر من الدار ومن  
 أهلها كل شيء ؛ فقد رأى زوجه سمية فرحة مريحة ، قد أشرق  
 وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهي تلقاء مبهجة النفس  
 منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتى تب إليه وتعلق به

(١) يقومون دونه : يتصررون ويلغفون عنه .

تُلْقَى إِلَيْهِ فِي صُوتٍ مُبْهِجٍ تُشَيَّعُ فِيَهُ الْغَبْطَةُ وَتُغْفَضُ مِنْهُ الْبَهْجَةُ .  
 أَبْشِرْ يَاسِرْ فَقَدْ جَاءَنَا عَمَارْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ! قَالَ يَاسِرْ دَهْشًا :  
 الْآخِرَةُ ! مَا الْآخِرَةُ ؟ مَاذَا تَقُولُونَ ؟ إِنِّي لِأَعِيشُ حِيَثُ مَنْكَرَةُ مِنْذِ  
 الْيَوْمِ ، تُسْرُوَ عَنِّي أَحَلَامُ الْلَّيلِ ، وَلَا أَفْهَمُ مَا يُقَالُ لِي أَثْنَاءَ النَّهَارِ .  
 قَالَ عَمَارْ : أَبْشِرْ يَا أُبْتَ ؟ فَقَدْ جَهَنَّمَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . قَالَ  
 يَاسِرْ : أَمْفُصَحٌ أَنْتَ عَما تُرِيدُ ؟ أَلَمْ أَحْدَثْ أَنْكَرَةً قَدْ صَبَّأْتَ !  
 وَبِلَكَ<sup>(۱)</sup> ! مَاذَا جَنِيتَ عَلَى أَبْوِيلَكَ ؟ ! قَالَ عَمَارْ وَهُوَ يَتَضَاحِكُ  
 رَفِيقًا بِأَبْيَهِ : بَلْ قَلْ<sup>\*</sup> : مَاذَا جَنِيتَ لِأَبْوِيلَكَ ! فَقَدْ جَنِيتُ لِكَمَا  
 خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . لَقَدْ حَدَّثَكَ مِنْ حَدَّثَكَ بِأَنِّي صَبَّأْتَ ، فَإِنِّي  
 لَمْ أَصْبَأْتُ ، وَإِنَّمَا أَسْلَمْتُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ  
 وَالقَمَرَ وَالنَّجْوَمَ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا مُحَمَّدًا يَهْدِنَا سُبُّلَنَا وَيَبْصُرُنَا بِأَمْرِنَا  
 وَيُخْرِجُنَا مِنَ الظَّلَمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالْغَيَّ إِلَى  
 الْحَكْمَةِ وَالْهُدَى وَالرَّشْدِ ، وَيُبَشِّرُ مِنْ آمِنَ وَاتَّقِيَ بِأَنَّ لَهُ رَضَا اللَّهِ عَنْهُ  
 مَا عَاشَ ، وَبِأَنَّ لَهُ رَضَا اللَّهِ عَنْهُ وَمُشْرِبَتِهِ لَهُ بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ ، وَيَنْذِرُ  
 مِنْ كَذَّابٍ وَعَصِيَّ بَأْنَ عَلَيْهِ لِعْنَةَ اللَّهِ حِيَّا ، وَبِأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا<sup>(۲)</sup>  
 خَالِدًا فِيهَا بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ .

وَسَعَ الشَّيْخُ هَذَا كَلَهْ مَصْفِيًّا لَهُ ، وَكَانَ كَلِمَاتُ ابْنِهِ كَانَتْ  
 تَنْفَذُ إِلَى قَلْبِهِ دُونَ أَنْ تَمْرُ بِأَذْنِيهِ ، وَقَدْ جَعَلَ وِجْهَهُ يُشْرِقُ شَيْئًا فَشَيْئًا

(۱) الْوَيْلُ : الْمَلَكُ ، وَيَلْعُبُ بِهِ مَنْ رَقَعَ فِي مَلَكَةِ يَسْتَحْقُهَا

(۲) يَصْلَاهَا : يَقْاسِي نَارَهَا وَيَعْرِقُ بِهَا .

حتى استحال كله نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى  
 تهلك وكاد ينها لولا أن أسرع إليه ابنه وأمرأته فأستداه وأجلساه  
 وأقبل عليه يرفقان به ويتلطفان له ، يمسح عمار رأسه وتُمْسِيَّة يدها  
 على وجهه ، والشيخ واجم لا يتحرّك لسانه في فمه إلا بهذه الكلمات :  
 فهو ذاك إذن ! فهو ذاك إذن ! قال عمار في صوت حلو : ماذا  
 تقول يا أبا ؟ قال ياسر وقد احتبس في حلقة عبرة لم يتَّبِعْ صوته  
 منها إلا بعد جهد ، وقد جعلت عيناه تسْحَان على وجهه دموعاً  
 غزاراً — قال ياسر : هو ذاك إذن ! لقد ذكرتني يا بني حديثاً  
 كان بيني وبين أبي حذيفة حين ألمت بعكة ولم أكُدْ أجاوز  
 العشرين . أراد أن يخالفي عند آخره فأبى عليه ، فلما سألني  
 عن ذلك ذكرت له أنني لو كنت متخدناً إلَّا لعبدتُ البحر الذي  
 ينبعني ، أو الشمس التي تضيّ لي ، أو النجوم التي تهدبني .  
 ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدد إلى نفسي ولا يثير  
 فيها رغبة ولا رهبة . فقد أبى محمد إذن بأن هذه الآيات كلها  
 خالقاً فطرها ودبّر أمرها ، هو ذاك إذن ! ثم أطرق الشيخ إطراقة  
 طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تهلّ من عينيه غزاراً وهو يقول :  
 هو ذاك إذن ! ومن أجل هذا آثرتُ بعد الدار على قربها ، وآخرتُ  
 أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عنس .  
 وترك أخواتي يعودان إلى هامة ، وأقمت أنا في هذه البطحاء .  
 ثم يتحول إلى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حُكْمُهُ هو

الذى دعنى إلى انتظار هذه الساعة . ثم يعود إلى إطراقه ، ثم يرفع رأسه ، وقد كفت عيناه عن البكاء وجعلت قطرات من دموعه تلألأ في لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تصحبنا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار هلم الآن إن شئت .

وأقبل المساء من ذلك اليوم فإذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل في فتية من أحوار غزوم ورؤقها ، فوضعوا عمارا وأبويه في الحديد ، وأشعلوا في دار ياسر النار . يقول ياسر لسمية والقوم يعتلونهم<sup>(١)</sup> إلى حيث يحبسون : انظري سمية ، هذا أول النار التي عرضتها على الأحلام . فيقول عمار : ومن ورائها جنة فيها نعم ورضوان للذين صدقوا محمدا واستجابوا لما دعاه إليه .

## ٧

واجتمع الملايين في المسجد حين ارتفع الضحى من الغد ، فلم يتهدّوا في تجارة ولا بيع ، وإنما تحدثوا في هذا الحدث العظيم الذي ابتكره في غزوم في هذا البلد الآمن الذي ليس لأهله عهد بتحريق الدور على أهله ، ووضع الرجال والنساء في الحديد وإذاقهم ألوانا من العذاب ، مع أنهم لم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يقترفوا من الآثام والذنوب ما تعودت قريش أن تبتكره وتعاقب عليه . يقول الوليد بن المغيرة لأبي جهل عمرو بن هشام زويحـك يا ابن أخي !

---

(١) عليه : جره جراً علينا وجذبه فحمله

لقد أحدثت في هذا الحرم الآمن ما ليس لقريش به عهد ؛ لم تؤمرنا فيها صنعتَ، ولم تصندُ عن ذرى أحلامنا<sup>(١)</sup> ولا عن أولى الرأي من قومك ، وإنما اتبعت هواك ، واستخفّك الغرور ، وتبعل السفهاء من فتياننا والمحمسون من رقيقنا . وإن لآخشى أنه يكون لهذا الحدث الذي أحدثه ما بعده ؛ فإن لهذا الحرم في نفوس العرب مكانته : يؤمنون فيه من خوف ، ويطعمون فيه من جوع ، ويلتمسون فيه ما لا يجدون في غيره من الدعة والسعنة والطمأنينة والرخاء . فكيف إذا تسامعت العرب بأن الذين يأowون إلى هذا الحرم ويستظلون بظل هذا البيت لا يجدون دعة ولا سعة ولا ينعمون بأمن ولا عافية . وإنما تحرق عليهم دورُهم ويوضعون في الحديد ويسامون سوء العذاب ! وكيف إذا تسامعت العرب بأن فتيان قريش وسفهاءها قد بغروا وطغوا وأصبحوا لا يخلون بالملأ ولا يدنو الأحلام والرأي من قومهم ، وإنما يركبون رءوسهم ويستجبيون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم لا يحفظون للجار عهداً ولا يرعن للأجي حرجة ! أما إنني مشير على خزوم بأن تطلق هؤلاء الأسaris ويأن تتصفهم منك ومن أصحابك . قال أبو جهل عمرو بن هشام وقد اتفق سحر<sup>(٢)</sup> وورم أنفه وصعد الدم إلى وجهه وجعلت عيناه تقدّحان شرراً : ههيات ، لا واللات

(١) تؤمرنا : تستشيرنا . ولم تصدر عن ذرى أحلامنا : لم تفعل ما فعلت عن رأى الملاه فينا . الأحلام : المقول .

(٢) السحر : الرقة . وانتقلت السحر كناثة عن مجاورة القذر .

والعزى لا تصلون إلى هؤلاء الأساري وقام هذا السيف في هذه اليد .  
ولاني لأعلم أنني أحدثت في هذا الحرم ما لا عهد لأهله به ، ولكنك  
تعلم يا عم أن مهدا قد سبقني فأحدثت في هذا الحرم ما لا عهد  
لأهله به . قال الوليد في رفق : ويحث يا ابن أخي ! فإن مهدا  
لم يحرق دارا ولم يعنف بأحد ولم يضع أحدا في الحديد . قال  
أبو جهل : بل هو فعل شرّا من ذلك ، إنه أفسد علينا الرقيق ،  
وأفسد علينا الدهماء<sup>(١)</sup> ، يغريهم بالموتى ، ثم لا يكفيه ذلك فيغريهم  
بأموالنا ومرافقنا ويطعمهم في مراتينا ومنازلنا التي توارثناها ، ثم لم  
نخلد إليها ، وإنما نبدل في الاحتفاظ بها ما نملك من قوة وجهد  
ألم تر إلى هؤلاء الرقيق الذين اتبعوا مهداً يزعمون أنهم رجال أمثالنا ،  
 وأن لهم مثل ما لنا من الحق ، وأن عليهم مثل ما علينا من التبعات ،  
 وأنهم أكرم منا عند الله منزلة وأرفع منا عنده مكانة ؛ لأنهم يخلصون  
له قلوبهم ويؤمنون به وحده لا يشركون معه اللات والعزى ومناة  
وهبيل ! فهم أولو الرأي والحلم ، ونحن السفهاء والحمقون ! ويحث  
يا عم ! إنكم إن تركوا مهداً وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه في أرض  
مكة لا تزيدوا على أن تجعلوا عاليها سافلها ، وعلى أن تُضيئوا ما  
أورثكم آباوكم من العزة والمجدة ومن العزة والسلطان . وأيهما شر : أن  
تسامع العرب بأن العلماء من أهل مكة يزجرون السفهاء ويرددونهم  
إلى القصد ، أم أن تسامع العرب بأن الرقيق من أهل مكة قد

أصبحوا سادة ، وبأن السادة قد أصبحوا ريقاً ، وبأن الآلة التي  
 يجرون إليها من أقصى الأرض قد أصبحت هزّةً وسخريةٌ !  
 لا والله لا تصلون إلى هؤلاء الأساري وقائمُ هذا السيف في هذه  
 البد . قال أمية بن خلف : وَصَلَّتِكَ رَسْمٌ يا أبا الحكْمِ ! والله لقد  
 سعيت فأحسنت السعي أمس ، ولقد قلت فأحسنت القول اليوم .  
 وإن أمر محمد وأصحابه لشوكةٍ في جنب هذا الحى من قريش ،  
 ولن يستقيم لهذا الحى أمره حتى تنزعَ من جنبه هذه الشوكة . ولو  
 قد بلاعْتُكَ من ريقته وأحلافه مثلَ ما بلوت أنا من بعض أتباعى  
 لما اشتط عليك في القول ، ولا ألحَ عليك باللوم منذ اليوم . وإن  
 الذي صنعت بأساراكَ من أحلاف عزوم ورقيتها أمس قد صنعت  
 مثله بقوم من أحلاف جمَحَ ورقيتها . ولا والله يا معاشر قريش  
 ما لكم من أمركم خيرَة ، وإنما هي الحرب المنكرة قد حملت إليكم  
 ونصبَتْ عليكم في عُقرِ داركم<sup>(١)</sup> ؛ فإن أردتم أن يصبح ما لكم نهياً  
 لبعيدكم وإمائكم والطارئين عليكم من أشباب العرب وأخلاق الناس ،  
 وإن أردتم أن يفقد هذا البيت حرمتَه ، وتفقد هذه الآلة ذكرَها  
 الطائرَ في الآفاق ، وتصدِّيَ العرب عن الحجَّ إليكم واللياذ بكم ،  
 وتصبحوا أحذوبة في الأفواه وسمراً للسامرين ، فَخَلُلُوا بين محمد وأصحابه  
 وما يريدون . وإن أردتم أن تمسكوا عليكم أموالكم ، وتحفظوا على  
 الآلة سلطانها ، وتتكلموا لهذا الحرم ذكره بين الناس ، فشدوا على

---

(١) عقر الدار : وسطها وأحسن مكان فيها .

أيديكم<sup>(١)</sup> . ورُدوا على أنفسكم فضلَ أحلامكم ، واستقبلوا أمركم بالحزن والندى ، وكفُوا هؤلاء السفهاء عما أمعنوا فيه من الفساد . قال أبو سفيان صخر بن حرب : أما إني لا آمن أن أمضى بتجارتك غداً إلى الشام أو إلى اليمن ، وأن أعود إلى هذا البلد بعد أشهر فأرى أصحاب الأموال وقد شردوا وأزيلوا عن أماكنهم . يا معشر قريش إن التجارة خير . وإن فيها لربحًا وسعة ، ولكن التجارة ليست مربحة إذا لم يحتم ظهرها . ويحكم ! إنكم تصنعون العرب لتحمّوا طريق تجارتك إلى الشام واليمن ، فكيف إذا عجزتم عن حماية تجارتكم في مستقرها ! أما إني لن أربح الأرض بتجارتكم حتى أعلم أنكم ستحمّون ظهوري ، وأنني سأعود إلى مكة فأرى أهلى كما تركتهم آمنين وادعين لم يرزعوا<sup>(٢)</sup> في أنفسهم ولا في أموالهم . قال الوليد بن المغيرة متضاحكًا : ويحكم ! كأنما أطرتُ بما قلت لابن أخي طائراً كان في صدوركم<sup>(٣)</sup> ! ها أنتم هؤلاء قد أفسد الحروف عليكم أمركم وأخرجكم الذعر عن أطواركم ، فما كبرتم من أمر هذه العصبة صغيراً ، وعظتم من شأنها حقيراً . إنهم ما علمت لواعدون يتهدّدون بأحاديثهم فيما بينهم . لم يبادوكم بشر ، ولم يرزّعوكم في مالكم قليلاً ولا كثيراً . قال أبو سفيان : فترى أن نُنْظَرَهُم<sup>(٤)</sup> حتى يفعلوا ؟ قال أبو جهل :

(١) شد على يده : أعاده وقواه .

(٢) يرزعوا : يصابوا .

(٣) أى هيئت غضبه وأثراه .

(٤) نظرهم : نمهلهم .

فإني أريد أن أستأصل هذِي الشر قبل أن يستفحُل . امض أبا سفيان بتجارتنا حيث شئت ؛ فإن علىَّ أن أحْمِي ظهرك وأن أحفظ لك مكة كما تحب أن تكون . قال عتبة بن ربيعة : يا معاشر قريش : كلَّكم قال فأحسن القول . إنا والله ما نرضى أن تُسْفِهَ أحَلامَنَا ولا أن تعاب آهَمَنَا ولا أن تتعرَّضَ أموالنَا لِشَرٍّ ، ولكن لنا في القصد والعافية ما يغنينا عن العنف والبطش ؛ فلتؤذْب سفهاء<sup>(١)</sup> قومنا بالأَنَّةِ واللِّينِ ، ولنأخذ الرقيق والأحلاف بالشدة والعنف ؛ فإننا إن نفعل ذلك نقرّ السلم في ذات بيتنا ، ونجعل من الرقيق والأحلاف مثلًا وعبرة ونکالا . قال أبو جهل : وهل فعلتُ غير هذا ؟ إني لللات والعزى لو أطعْتُ نفسي لقتلت الأرقَمَ بن أبي الأرقَمَ ، ولحرقت دارَةَ على من فيها ، ولو جدت في ذلك شفاءً لنفسي أَيْ شفاءً ! ولكنني أوثر العافية في مخزوم ، وأتَخَذَ من هؤلاء الأخلاط والمستضعفين نکالا للصابئين<sup>(٢)</sup> من قريش . قال الوليد بن المغيرة وهو ينهض متناقلًا ويضحك ساخراً : بشّ والله ما تصنِع يا ابن أخي ! إنما يقيس القوى قوته إلى الأضراب والنظراء<sup>(٣)</sup> ، فاما أن يقيسها إلى الأحلاف والرقيق والمستضعفين من الناس فهذا والله الجبن والترق<sup>(٤)</sup> ، ولكن لا رأيَّ لمن لا يطاع .

(١) السفهاء : الجهلاء .

(٢) الصابئون : الذين خرّجوا من دين إلى دين آخر .

(٣) الأضراب والنظراء : المتأثرون المشاهدون .

(٤) الترق : ضياع الرأي وسوء التصرف والجهل والحمق .

وتفرقت قريش فذهب أكثر الملايين دورهم إلا أبو جهل ، فإنه ذهب في عصبة من الفتية والرقيق فاستخرج أسراء من منبهم ذلك الذي أنفقوا فيه الليل ، ومضى يدفعهم أمامه يتبعجل خطواتهم . وأني لمقيد أن يسرع الخطوة ! ولكن أبو جهل وأصحابه كانوا يخزفون بالرماح والخناجر وخزاً<sup>(١)</sup> يؤذى ويُذم ويُشق ، ولكنه لا يبلغ الأنفس ، وربما ألمتهم ضرباً بالسياط ، وربما جذبوا حية ياسر وعمار وشمر سية لهم يتضاحكون ويتصلحون ، والناس يتلانون<sup>(٢)</sup> عليهم من كل بيت وينضمون إليهم من كل وجه . وكان الأسرى قد تحدثت نقوسهم وسكتت ألسنتهم ، فأبجعوا ألا يرفعوا صوتهم بشكاة ولا يظهروا أبداً ولا ضيراً .

ومضوا كذلك ، حتى إذا بلغوا مكاناً في البطحاء وقف أبو جهل ووقف الناس معه ، ثم تقدم حتى دنا من ياسر فقال له ساخراً منه : أباقي أنت على حلفك لخزوم كما حدثنا أمس ؟ قال ياسر : فإنك قد أخرجتنا من هذا الحلف حين بغيت علينا<sup>(٣)</sup> ، فألقيت علينا عبئنة وزرها<sup>(٤)</sup> . قال أبو جهل : فقد برهنت من حلفنا إذن ؟ قال ياسر : كله أبراً من الشر والنكر وما يخزي الرجل الكريم . ولم يمهله أبو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم في وجه عماد

(١) الخز : الطعن بالريح لا يمكن نافذاً .

(٢) يتلانون : يقبلون بكلمة متابعين .

(٣)

بني عليه : استطال عليه وظلمه .

(٤) به وزره : حمله الثقيل وذنبه .

وسمة حتى أدمواهـا . ثم تقدم<sup>(١)</sup> أبو جهل إلى أصحابه أن يطربوا هؤلاء الأساريـر أرضـا ففعلوا . ثم تقدم إليـهم أن يأخذوـهم بـمـكاوى النار<sup>(٢)</sup> في جنوبـهم وصـدورـهم فـفعـلـوا . ثم تـقدمـ إليـهمـ أنـ يـصـبـواـ عـلـىـ صـدـورـهمـ الحـجـارـةـ الثـقـالـ فـفعـلـوا ، وأـبـوـ جـهـلـ يـنتـظـرـ مـتـحـرـقـ النـفـسـ أنـ يـسـمعـ منـ أـحـدـهـمـ صـيـحةـ أوـ آـنـةـ أوـ شـكـاةـ . ولـكـنـ نـفـوسـ الـأـسـارـيـ قدـ تـحـدـثـ بـعـضـهاـ إـلـىـ بـعـضـ وـفـهـمـ بـعـضـهاـ عـنـ بـعـضـ ، فـعـقـدـواـ أـسـنـهـمـ وـعـمـرـواـ قـلـوبـهـمـ بـذـكـرـ اللهـ ، وـخـلـوـاـ بـيـنـ الـقـوـمـ وـبـيـنـ أـجـسـامـهـمـ يـصـنـعـونـ بـهـ ماـ يـرـيدـونـ . وـعـبـثـ أـبـوـ جـهـلـ وـأـصـحـابـهـ بـأـجـسـامـ هـؤـلـاءـ الـثـلـاثـةـ حـتـىـ مـلـوـاـ الـعـبـثـ وـضـاقـواـ بـهـ ، فـفـنـرـقـوـاـ عـنـهـمـ بـعـدـأـنـ وـكـلـلـوـاـ بـهـ حـرـاسـاـ يـحـفـظـوـنـهـمـ عـلـىـ حـالـهـمـ تـلـكـ سـتـىـ يـعـودـوـاـ إـلـيـهـمـ حـينـ تـجـنـحـ الشـمـسـ إـلـىـ الـغـرـوبـ .

## ٨

قال حرب بن أمية لعبد الله بن جدعان : ما رأيت كغلامك الروى هذا دكاء قلب ونفذ بصيرة وبراعة في التجارة ومهارة في تسيير المال . قال عبد الله بن جدعان . أما إذا قلت هذا فاني لا أدرى أعربي هو سبته<sup>(٣)</sup> الروم صبياً حين أغارت على أرض الفرس

(١) تـقـدـمـ إـلـيـهـ أـنـ يـفـعـلـ كـذـاـ : أـمـرـهـ بـهـ .

(٢) يـأـخـذـهـمـ بـمـكاـوىـ النـارـ : يـكـوـنـهـمـ بـالـنـارـ وـيـعـذـبـهـمـ بـهـ .

(٣) سـبـهـ : أـمـرـتـهـ .

كما يقول . أم روميّ هو سبته العرب بين أغارت مع الفرس على أرض الروم كما يقول الكلبيون الذين باعوه لها عامَ أولَ في الشام . قال حبيب بن أمية : إنَّ فيه حرة لا تعرفه العرب ، وإنَّ لسانه يرتفع لهجة رومية طلما سمعت مثلها في كثير من أهل الشام . فليكن عربياً أو ليكن رومياً فليس بذلك شيءٌ من الخطأ ، ولكنني لم أر مثله قط ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وحسن نظر في التجارة وتنمير المال . لقد رأيته في رحلتنا تلك إلى اليمن وحين عبرنا البحر إلى بلاد الحبشة شيطاناً من الجن يتنسم<sup>(١)</sup> مصادر الريع وموارد الكسب ، ويبثثنا غير مكذب بأننا إن ذهبنا إلى هذا الوجه أو أقمنا في هذه القرية بعنا كأحسن ما يكون البيع ، وشرينا كأحسن ما يكون الشراء . ولستُ أدرى كيف تنسم ريح الريع في بلاد النجاشي ، فاتصل ببرجال أمثاله لا يحسنون لغتنا ولكنهم يتعاطون فيها بينهم رطانة رومية . فباعهم كل ما كان معنا ، وواشتري منهم ما لم نكن نطعم في شرائطه ولا نقدر على حلها . واحتال حتى أعادنا إلى مكة في السفن التي تبحر البحر لا على ظهور الإبل التي تسبح في البر . وأشد من ذلك وأدلى غرابة من ذلك إلى العجب أنه ألقى في رُوع<sup>(٢)</sup> أولئك الناس أنهم يستطيعون إن شاءوا أن يرسلوا رسلاً منهم يحملون ما يحتاجون إليه من المال ليشرروا منها إذا بلغنا أرضنا ما يملئون به سفنهم حتى

(١) تنسم الشيء : تشميه ليعرف مصدره .

(٢) الرُوع : سواد القلب ووضع الفزع منه ، والذهن ، والعقل .

لا تعود إلى مستقرها فارغة ؛ فأغناها في موسم واحد عن رحلتين ، بل عن أكثر من رحلتين . قال عبد الله بن جدعان : إنه ما علمت لغلام صنع<sup>(١)</sup> ميمون النقيبة ، ولقد استكرهت على شرائه ، ولكنني لم أر منه إلا خيراً .

وخلال عبد الله بن جدعان مساء ذلك اليوم إلى غلامه ذاك الروى الذي سبته العرب ، أو العربي الذي سبته الروم ، فقال له : لقد أحسنت البلاء يا صهيب في رحلتك هذه إلى اليمن وأرض الحبشة ، ولو لم يُشن عليك حرب بن أمية لأنني عليك هذا المال الكثير الذي رجعت به إلى . فهل كان لك بالتجارة من عهد ؟ قال صهيب : ميهات ! ما أعلم أنني بعثت أو اشتريت قبل رحلي هذه إلا ما يبيع الناس ويشربون من حاجتهم التي تصلح أمرهم في كل يوم . قال عبد الله بن جدعان : فهي الفطرة إذن ؟ قال صهيب : هو ذاك . وأطرق عبد الله بن جدعان ساعة ، وهم صهيب أن ينصرف ، ولكن سيده استبقاء بالإشارة ، فأقام ينتظر أن يرفع سيده إليه رأسه وأن يصدر إليه أمره . وطال إطراق السيد حتى ملّ الغلام أو كاد . ولكن عبد الله بن جدعان يرفع رأسه ويسم للغلام ويقول في تحفظ وهدوء : أصيّاق<sup>\*</sup> أنت بالرق يا صهيب ؟ قال صهيب : ومن ذا الذي لا يضيق بالرق ولا يتمنى أن يكون حرّاً ! قال عبد الله بن

---

(١) غلام صنع : ماهر حاذق . ميمون النقيبة : محمود المختبر .

جدعان : فلاني أريد أ . أرد عليك حرثتك ، وأن أستكث أمر نفسك<sup>(١)</sup> ، ولكن بعد أن أعرضك لمحنة ذات خطر . قال صهيب : فأمسكْ عليك حرثتك هذه التي ت يريد أن تردها علىَ ؛ فإن الحرية لا تباع ولا تشرى . قال عبد الله بن جدعان : ويهلك يا صهيب ! ماذا تقول ؟ لقد اشتريتك من بني كلب ، واشتراك بنو كلب من الروم أو من العرب لا أدرى . قال صهيب : فإنك لم تشرى ، وإن بني كلب لم يشترون من نفسى ، وإنما عدا علىَ العادون فياعونى من بني كلب ، وباعونى بنو-كلب منك على كره مني لا عن رضاً ولا عن اختيار . فأنتم تروونى عبداً قنَا وأنا أرانى رجلاً حراً ، وأنتم تتسلطون على جسمى بما تملكون من قوة ومال وسلطان ، ولكنكم لا تجدون لأنفسكم على نفسى سبيلاً . قال عبد الله بن جدعان : فما أكثر الرقين الذين يكتابون<sup>(٢)</sup> على أنفسهم ويشررون حرثتهم بالأموال والأعمال ؛ قال صهيب : هم وما يصطنون ، أما أنا فلن أكاتب ولن أشنرى حرثتى بمال أو عمل ! لأنى ما زلت أرانى حراً في نفسى . قال عبد الله بن جدعان : صدق حرب بن أمية ، إنك لذكى القلب جرىء الجنان ، ولكنى أريد . . . قال صهيب : ت يريد أن تختننى ! فإن سلطانك علىَ يبيع لك أن تعرّضنى لما شئت

(١) أملكك أمر نفسك : أصيرك حراً .

(٢) مكتبة الرقيق : أن يكتب العبد على نفسه بشئنه ، فما زاد سبيلاً وأدأه عتق .

من حنة ! فرنى بما شئت فستاني عندما تحب ، ولكن لا تعيديني شيئاً ! فلاني لا أكره شيئاً كما أكره الأمانى والوعود .

وهم عبد الله بن جدعان أن يرد عليه راجح حديثه ، ولكن صهيباً لم يمهله ، وإنما قال له متراجلا : وهل لك في أن أخف عنك بعض هذا العباء الذي ينوه بك<sup>(١)</sup> ، وأن أفصح لك عما يضيق به صدرك ولا ينطلق به لسانك ؟ قال عبد الله بن جدعان : وإنك لتعلم دخائل الصدور ؟ قال صهيب : لقد نجحت في رحلتي إلى اليمن وأرض النجاشي ، وجلبت إليك مالا كثيراً ، فأنت تود لو أرسلتني في تجارتكم إلى الشام وأرض قيصر ، وقطن أنني سأجلب لك منها أكثر مما جلبت لك في رحلة الشتاء ، وأنت تأمنني على مالك لتجارتكم لا تخاف أن يصييك فيما ضير ، ولكنك لا تأمنني على نفسي ، وإنما تقدر أن قد نشأت حرراً في بلاد الروم ، وأنني خليل إن رأيت هذه الأرض أن أقيم بها وألا أعود إليك ، وعسى أن أحتجز فيها ما استودعني من تجارة ومال . قال عبد الله بن جدعان أما هذا فلا ؛ إنك عندى أمين على المال والتجارة . قال صهيب : أوكلست تراني بعض مالك ؟ فأشعرني على نفسي كما تأمنني على ما سترسل معي في العروض<sup>(٢)</sup> . وبعد فارح نفسك من هذا العناء ، وانهض في تهيئة تجارتكم إلى أرض قيصر ، فسارحل عنك وسأعود

(١) ينوه بك : يجهلك ويشق عليك .

(٢) العروض : جميع معرفت وهو المتعار .

إِلَيْكَ يَعَالِ لَا عَهْدَ لَكَ بِمُثْلِهِ ؛ فَأَنَا أَعْلَمُ النَّاسَ بِمَا يَحْبُبُ الرُّومُ وَمَا  
 يَكْرَهُونَ ، وَلَيْسَ لِي فِي بَلَادِ الرُّومِ أَرْبَ<sup>(١)</sup> ، وَلَيْسَ لِي بِالإِقَامَةِ فِيهَا  
 كُلُّفٌ ، فَقَدْ عَلِمْتُ مِنْذَ آخِرِ الصِّبَا وَأَوْلَ الشَّيَّابِ أَنَّ بَلَادَ الرُّومِ  
 لَيْسَ لِي بِدَارٍ . وَقَدْ عَلِمْتُ مِنْذَ آخِرِ الصِّبَا وَأَوْلَ الشَّيَّابِ أَنَّ لِي  
 فِي قَرِيَّتِكَ هَذِهِ أَرْبَأً أَيْ أَرْبَ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا قَمْتُ مَعَكَ ، وَلَا أَذْعَنْتُ  
 لِسُلْطَانِكَ . وَأَى شَيْءٍ أَيْسَرُ عَلَى مُثْلِي مِنْ أَنْ يَفْوَتَكُمْ إِنْ شَاءَ الْقُوَّتُ ،  
 وَلَسْمَ بَنْوَى حَرَسٍ وَلَا بِأَصْحَابِ شَرَطٍ . وَلَوْلَا قَدْ شَتَّتَ نَحْدُوكُمْ  
 فِي خَدْعَتِكُمْ حَتَّى أَخْرَجْتُمْ مِنْ حُرْمَكُمْ هَذِهِ ، ثُمَّ تَطَلَّبُونِي مَا وَسَعُكُمْ  
 الْطَّلَبُ فَلَا تَجِدُونَ إِلَيْ سَبِيلٍ ، وَلَوْلَا قَدْ أَدْرَكْتُمْنِي لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْ .  
 قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ : لَكَ فِي قَرِيَّتِنَا هَذِهِ أَرْبَ أَيْ أَرْبَ !  
 وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ صَهْبَ : لَوْلَا عَرَفْتَ لِأَبْنَائِكَ بِهِ ، وَلَكِنِّي نَبَشَّتَ مِنْذَ  
 آخِرِ الصِّبَا وَأَوْلَ الشَّيَّابِ أَنَّ حَيَايَ وَمَاتَ فِي أَرْضِكُمْ هَذِهِ : أَعْيَشَ  
 فِي حُرْمَكُمْ هَذَا شَطَرًا مِنْ عَمْرِي ، وَأَعْيَشَ فِي حَرَمٍ آخِرَ شَطَرَهُ الَّذِي  
 يَبْقَى لِي ، وَمَوْتٌ وَادْفَنُ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ :  
 وَيَحْكُمْ يَا صَهْبَ ! إِنَّكَ لَتَحْدِثُنِي بِالْأَحَاجِيِّ<sup>(٢)</sup> مِنْذَ الْيَوْمِ ، وَإِنِّي  
 لَا أَعْرِفُ فِي بَلَادِ الْعَرَبِ حِرْمًا غَيْرَ هَذَا الْحِرَمِ . قَالَ صَهْبَ :  
 وَأَنَا لَا أَعْرِفُ فِي بَلَادِ الْعَرَبِ حِرْمًا غَيْرَ هَذَا الْحِرَمِ ، وَلَكِنِّي أَحْدَثُكَ  
 بِمَا نَبَشَّتُ بِهِ فِي آخِرِ الصِّبَا وَأَوْلَ الشَّيَّابِ ، وَهُوَ حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ

(١) أَرْبَ : حَاجَةٌ رِغَابَةٌ

(٢) الْأَحَاجِيُّ : جَمْعُ أَسْجِيَّةٍ . دَهُ الْكَلَامُ الْمُفْلَقُ كَالْفَرْ .

قسَ فِي بَلَادِ الرُّومِ ، فَلَمْ أُفْهَمْهُ وَلَمْ أُنَقِّ إِلَيْهِ بَالًا حَتَّى رَأَيْتُنِي أَبْاعَذَاتِ يَوْمٍ مِنْ بَنِي كَلْبٍ ، وَسَمِعْتُ سَادِقَيْتُ تَحْدِثُ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضِ بَأْنَهُمْ يَبِيعُونِي بِشَمْنَ رَبِيعٍ حِينَ يَفْدِ عَلَيْهِمُ الْوَافِدُونَ مِنْ سَكَانِ الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ . وَلَوْ قَدْ شَتَّتُ أَنْ أَفْلَتَ مِنْ بَنِي كَلْبٍ لَا أُعْيَانِ الْإِفَلَاتِ ، وَلَكِنِي أَرْدَتُ أَنْ أَمْتَحِنْ نَبِيَّةَ الْقَسِّ فَأَفْلَيْتُهَا صَادِقَةً إِلَى الْآنِ .

وَمَا أَرَى إِلَّا أَنَّهَا سَتَصْدِقُ حَتَّى تَبْلُغَ مَدَاهَا . فَأَرْسَلْتُنِي فِي تَجَارِبِكَ حِيثُ شَتَّتَ ؛ فَإِنِّي نَاصِحٌ لَكَ وَعَاهِدٌ إِلَيْكَ . وَارْدَدْتُ إِلَى حَرَبِيَّنِي إِنْ أَحَبَّتِ ؛ فَإِنِّي مَقِيمٌ فِي أَرْضِكَ هَذِهِ لَا أَرِيمُ ؛ وَأَخْرَجْتُنِي مِنْهَا إِنْ أَرْدَتُ حِينَ يَصْبِعُ الصَّبِيعُ ؛ فَإِنِّي رَاجِعٌ إِلَيْهَا حِينَ يَمْسِي الْمَاءِ فَقِيمُ فِيهَا حَتَّى يَكُونَ مَا لَا بَدْءَ مِنْ أَنْ يَكُونَ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ : مَا رَأَيْتَ كَالِيلَوْمَ مَغَامِرًا مَقَامِرًا ! قَالَ صَهِيبٌ : هُوَ ذَاكُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ : فَاصْحَبْنِي إِلَى الْمَسْجِدِ ؛ فَإِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَشْهِدَ قُرَيْشًا عَلَى أَنَّكَ حَرَّ . قَالَ صَهِيبٌ : حَسْبُكَ أَنْ تُشَهِّدَ نَفْسَكَ وَتُشَهِّدُنِي عَلَى أَنِّي حَرَّ ! فَلِيَسْ لِي فِي شَهَادَةِ غَيْرِنَا عَلَى حَرَبِيَّنِي أَرْبَ .

وَأَصْبَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ فَتَحَدَّثَ فِي أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ بِأَنَّهُ قَدْ أَعْتَقَ غَلَامَهُ الرَّوْيَ صَهِيبًا وَحَالَفَهُ وَجَعَلَهُ أَمِينًا عَلَى مَالِهِ كَمَهُ وَعَلَى تَجَارَتِهِ فِي رَحْلَتِ الشَّتَاءِ وَالصِّيفِ ؛ فَسَمِعَتْ قُرَيْشٌ وَلَمْ تَنْكِرْ لَا تَحَدَّثَ إِلَيْهَا بِهِ حَرْبُ بْنُ أَمِيرَةِ مَا كَانَ هَذِهِ الْفَتَيَّ مِنْ حَسْنِ الْبَلَاءِ فِي تَجَارَةِ مُولَاهِ .

وَأَنْفَقَ صَهِيبٌ زَهْرَةَ شَبَابِهِ تَاجِرًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ ؛ يُشَرِّ

ماله وينشر تجارتة ، **فيُبُعِدُ** بها طوراً في أرض التجاشي وطوراً في أرض قيسرونة في أرض كسرى ، حتى أصبح عبد الله بن جدعان أكثر قريش مالاً وأوسعها ثراء وأعظمها عطاء وأسخاها يداً ، وحتى قصد إليه الشعراء يبيعونه الثناء بالمال الكبير . وكان عبد الله بن جدعان كلما سمع ثناء الناس عليه وأرضاه ذلك قال لصهيب : وإنما لك شطر هذا الثناء ؛ فأنت الذي أباح لي أسبابه ويسر لي وسائله . وكان عبد الله بن جدعان ربما سأله صهيباً بين حين وحين : ألا يزال لك في أرضنا هذه أربٌ؟ فيجيب صهيب : أربُ ، أي أرب ! يقول عبد الله بن جدعان : فهل تبينت أربك<sup>(١)</sup> يا صهيب ؟ فيقول صهيب : لو تبينته لما أخفيتها عليك .

وأدرك الموت عبد الله بن جدعان ذات يوم ، وخلصت لصهيب نفسه كلها ، وكثير ماله ؛ وكان خليقاً إن شاء أن يتحول إلى أرض قيسرونة نشا ، أو إلى أرض كسرى في العراق حيث ولد ؛ ولكنه أقام بعكة لا ييرحها ، وجعل يشعر ماله مقتصداً في هذا الت歇ير ، لا يغدو في التجارة ولا يبعد في الأرض ، وجعل يحيي سنة عبد الله ابن جدعان ، فيطعم الجائع ويقى العائل ويعين المحتاج . وجعلت قريش تطمئن إليه وتثق به وتأنس إلى حديثه ذاك الذي لا يكاد يُبين ؛ حتى أصبح ذات يوم فسح قريشاً تتحدث في أنديةها

(١) تبینت أربك : أوضحته .

عن دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن كان يجتمع فيها من الناس حول محمد بن عبد الله ، وما كان يتلى فيها من القرآن ، وما كان يدار فيها من الحديث ؛ فيحس صهيب في نفسه كأن أربه ذاك الذي رافقه منذ آخر الصبا وأول الشباب إلى آخر الشباب وأول الكهولة ، قد جعل يدניו منه قليلاً قليلاً ، وقد أخذت نفسه تُنَازِعُه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيصدّها ويردّها ويستمسك بالبقاء<sup>(١)</sup> على ما كان بيته وبين سادة قريش من المودة والإلف ، ولكن شوّه إلى دار الأرقم ابن أبي الأرقم يملأ عليه يقظه النهار ونوم الليل . حتى أصبح ذات يوم وقد أخذ نفسه بما تكره ، وخرج من داره يريد أن يمضى إلى المسجد ، ولكنه يمضى ويمضى ، ثم لا يبلغ المسجد ، وإنما يجد نفسه أمام دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ويرى غير بعيد منه عمار بن ياسر ، فيكون بينهما ما قدّمت من حديث ، ويدخلان ويستمعان ويُسْلِمَان وُيَقِيمَان مع أصحابهما ، حتى إذا أقبل المساء خرجوا جميعاً مُسْتَخْفِفين . وافتقدت قريش صهيباً يومها ذاك ، ثم افتقدته من غد ؛ ثم تحسّن أبو جهل أخباره ، ثم أقبل ذات يوم وهو لا يمسك نفسه من الغضب ؛ فلما رأته قريش قال قائلها : ثارت ثورة أبي الحكم . ووقف أبو جهل على نادى قومه فاتكأ على قوسه ثم قال في صوت المُحْنَّق المغيظ : أعلموا يا عشر قريش أن صهيباً قد صبا ، وأنه يُشارِكَ آل ياسر في عذابهم متذليليوم .

---

(١) البقاء : البقية . (٢) المحتق : الحافظ : المفاتاظ .

لَمْ تَشَدِّدْ خَنْمَ يَوْمًا كَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّتِي اتَّصَرَتْ فِيهِ عَلَى عَلُوِّ  
غَيْرِ مَحَارِبٍ ، وَالَّذِي مَلَأَتْ فِيهِ أَيْدِيهَا مِنَ الْقِيمَةِ : لَمْ تَكْلُفْ فِي  
ذَلِكَ عَنَاءً ، وَلَمْ تَبْلُغْ فِيهِ بَلَاءً . وَلَمْ تَبْذَلْ فِيهِ جَهْدًا وَلَمْ تَلْقَ فِيهِ  
كِيدًا ، وَإِنَّمَا كَانَ الرَّجُلُ مِنْهَا يَمْدُدُ يَدَهُ إِلَى مَا يَلِيهِ مِنَ الْمَالِ ثُمَّ يَرْدِهَا  
وَقَدْ أَصَابَتْ مِنْهُ مَا تَرِيدُ وَفَوْقَ مَا تَرِيدُ . كَأَنَّمَا أَنْهَيْتَ مَالَ النَّجَاشِيِّ  
إِنْهَاكًا ، وَأَمْرَتْ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ حَتَّى تَرْضَى ؛ وَلَمْ تَكُنْ تَرْضَى بِالْقَلِيلِ -  
وَلَا تَقْنَعُ بِالْيُسِيرِ : وَلَوْ قَدْ أَسْطَاعَتْ لِاَحْتَوْتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَالَ  
النَّجَاشِيِّ كُلَّهُ ؛ فَقَدْ كَانَ جَيْشُ أَبِرَوَةَ يَعُودُ مُهْزَمًا عَنْ سَكَةِ . قَدْ  
فَقَدْ حَوْلَهُ وَطَوْلَهُ وَقُوَّتِهِ فِي غَيْرِ حَرَبٍ ، وَجُلُّ أَمْرِهِ عَلَيْهَا مُهْوِكًا  
يَتَرَاعَى لَهُ الْمَوْتُ فَيَفْظُمُهُ وَيُفْزِعُهُ ؛ ثُمَّ تَرَاعَى لَهُ الْحَيَاةُ قَرْدَ إِلَيْهِ  
شَيْئًا مِنْ رُوحٍ وَرَاحَةٍ ، وَبِطَاطَتْهُ مُشَقَّةٌ بِهِ جَازِعَةٌ عَلَيْهِ . تَأْمُلُ  
وَجْهَ النَّهَارِ وَتَيَأسُ آخِرَهُ ، وَبِالْحَدَّ الْتَّنِينِ أَعْفَامُ الْمَوْتِ وَأَبْقَتْ عَلَيْهِمْ  
الْطَّيْرُ الْأَبَابِيلَ<sup>(١)</sup> يَسْعُونَ مُتَخَازِلِينَ مُتَضَالِلِينَ يَتَحَالَّمُونَ عَلَى سُوقَ<sup>(٢)</sup>  
لَا تَكَادُ تَحْلِمُهُمْ ، قَدْ بَلَغَ الْجَهْدُ مِنْ أَجْسَامِهِمْ ، وَعَبَثَ الْيَأسُ

(١) الْأَبَابِيلُ : الْمُتَفَرِّقَةُ أَوْ الْمُتَابِعَةُ .

(٢) سُوقٌ : جَمِيعُ سَاقٍ ، أَيْ لَا يَكَادُونَ يَسْتَلِعُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ .

بفسرهم ؛ فهم ظلال تسرق لال ، إلا أنها ظلال تخاف ولا تُخفى.

وكانت ختم قد رأت جيش أبیرة وهو يسعى إلى مكة في قوة أى قوة وحدة أى علة وفشل أى قتال . فاما كرامها وذوو أحلامها فتحموا لأبیرة عن طريقه<sup>(١)</sup> ، وكرهوا مقاومته وأنكروا مساومته ، ورأوا أنه معلم على ألم عظيم ، فربوا بأنفسهم عن المشاركة فيه . وأما سفهاؤهم وذوو الطيش والترق منهم فتفرقوا شيئاً واختلفوا أحراضاً : فهم من قاوم حتى أعيه للقاومة فاستكان ، ومنهم من ساوم فباع نفسه وأقبل على الإمام مستخدماً به غير حاصل بعواقبه ، ومنهم من تناهى عن الطريق ولم يُعِد ، وإنما أقام رصداً<sup>(٢)</sup> يرقب الجيش ويترقب به الدوائر ويشهر منه العذلات ، يقتل هنا ويمطر هناك ، ويلوذ بين ذلك بشعاف الجبال وشعابها<sup>(٣)</sup> ، حتى اضطُلن<sup>(٤)</sup> عليهم أبیرة في نفسه وأقسم ليؤديهم مُتصرفه عن مكة أدباء نتسامع العرب به ، فتعرف للنجاشي هيبته وسلطانه ، ولكن أبیرة لم يدخل مكة ولم يمس بيها بسوء ، ولم يتصرف عن مكة انصراف المتصدر ولا

(١) تحرعوا عن الطريق : مالوا عنه واجدوا .

(٢) الرصد : القوم الذين يوصلون أى يريقون كالحرس والملحق .

(٣) شعاف الجبال : أعلىها الراحلة شفة . وشعابها : ما ينفرج فيها ، الواحد شب بالذكر .

(٤) انصلحن : أنسوا الحقد والتغيّة .

انصراف الحق ، وإنما انصرف عنها انصراف المهزوم المذول الذي  
 فعل الدهز به الأفاعيل ، وإن لم ير جيشاً مهارياً ولا عدواً مناوئاً ،  
 وإنما رأى طيراً أبابيل ترميه وترى جيشه بمحجارة من سجيل ، فتجعله  
 وتجعل جيشه كعصف مأكلوٌ<sup>(١)</sup> . وقد أسرع ذهو خاصته به إلى  
 اليمن ، وقد نهكته العلة حتى أشرف على الموت ، ومرروا في  
 طريقهم بخشم فلم يطشاوا بها ولم يصبوا عليها عقاباً ولا عذاباً ،  
 إنما بطشت بهم خشم فصبت عليهم العقاب والعداب ، ولم يخلصوا  
 منها إلا بشق الأنفس ، ومضوا يحملون عليهم بين الموت والحياة ،  
 فلم يبلغوا به صناء إلا وقد انشق صدره عن قلبه وأدركه الموت بعد  
 أن برحت به العلة تبرجاً .

في ذلك اليوم ملأت خشم أيديها من ذائب النجاشي وحامده ،  
 فأخذت من الذهب والفضة ، وأخذت من الإبل والخيل ما أغلّ  
 عليها حين باعه ما لا كثيراً ، وأخذت فيها أخذت نساء وفتيات  
 من حسان الحبشه وكراعنهم كنْ يصحبن الجيش يربين في صحنه  
 للذه وبهجة ومتاعاً ، ويرى آباءهن وأزواجهن في استصحابهن تفريجاً  
 هنّ وتسلية هنّ ، وإمتاعاً لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان  
 في هذا السفر الذي لن يجدوا فيه مشقة ولن يتتكلفوا فيه جهداً ، وإنما  
 هو تسليه للنفوس وتسريه للهموم وتأديب لهذه الفتنة البخالة الغليظة

(١) عصف مأكلوٌ : ورق شجر أكلته الدواب وصار روثاً .

من أهل الباٰدية بهـَدِم ذلك البيت الذي يُكْبِرُونَه<sup>(١)</sup> ويعكرون عليه، ويرون أنه وحده خليق بالإكبار؛ وأنه وحده بجدير بالتقديس. سفر قاصد<sup>(٢)</sup> ممتع يجب أن تكمل فيه للرجال لذات أجسامهم وبهجة قلوبهم وقرة عيونهم . ومن أجل هذا استصحب قادة الجيش وأمراؤه زوجاتهم وبناتهم يمتعنـُـهم بالحب والرحمة . ويؤنسنـُـهم بالولد والحنان ، واستصحبوا القيـــان مغنيات وعازفات وراقصات يزدنـُـ بهجة السفر بهجة وجمال الرحلة جمالا . ولم يخطر لهم أنـُـهم إنما كانوا يستصحبـُـونـُـ الحـــرائر والإماء ليجعلوـُـهنـُـ نهـــياً لأولئـــك العرب الجــــفاء الغــــاظ البــــادين في طـــريقـُـهم إلى الــــبيــــت ، ولأولئــــك العرب الجــــفاء الغــــاظ الحــــاضــــرين من حول الــــبيــــت<sup>(٣)</sup>

ويخرج ســــاحــــيم بن ســــهــــيل الخــــثــــعــــي مع الــــخــــارــــجــــين ويعدو مع العــــادــــين ، وــــيــــلــــأ يــــدــــيهــــ كــــما مــــلــــأ بــــنــــو أــــبــــيــــ أــــيــــدــــيــــهــــ ذــــهــــبــــ وــــفــــســــةــــ وــــنــــعــــماــــ وــــعــــرــــضاــــ . ولــــكــــنهــــ يــــرــــى فــــيــــا يــــرــــى نـــــاقــــةــــ تــــســــعــــيــــ يــــقــــوــــدــــهــــا حــــبــــشــــ غـــــلــــيــــظــــ جـــــهــــمــــ ، يــــظــــهــــرــــ عــــلــــيــــهــــ فــــضــــلــــ مــــنــــ قــــوــــةــــ وــــبــــأــــســــ ، ولــــكــــنهــــ مــــتــــخــــاــــذــــلــــ مــــتــــوــــاــــكــــلــــ قد تــــهــــكــــ الجــــهــــد<sup>(٤)</sup> وأــــضــــتــــهــــ الــــعــــلــــةــــ ، فــــهــــ يــــســــعــــيــــ مــــذــــعــــاً لــــأــــمــــرــــ ســــادــــتــــهــــ . ولو استــــجــــابــــ لــــنــــفــــســــهــــ لــــاســــتــــرــــاحــــ فــــهــــا الــــجــــاــــبــــ أو ذــــاكــــ من جـــــوابــــ الطــــرــــيقــــ . ولــــرــــكــــ هذهــــ النـــــاقــــةــــ تــــقــــوــــدــــهــــا وــــتــــســــعــــيــــ إــــلــــىــــ حــــيــــثــــ تــــرــــيــــدــــ أو

(١) يــــكــــبــــرــــونــــهــــ : يــــظــــمــــونــــهــــ .

(٢) ســــفــــرــــ قــــاــــصــــدــــ : ســــهــــلــــ قــــرــــيــــ .

(٣) الــــبــــادــــينــــ : ســــكــــانــــ الــــبــــادــــيــــةــــ . الــــحــــاضــــرــــينــــ : ســــكــــانــــ الــــخــــضــــرــــ أــــيــــ الــــمــــدــــنــــ .

(٤) هــــلــــكــــ إــــلــــهــــ : أــــضــــنــــاهــــ التــــبــــ .

إلى حيث يريده لها القضاء . وينظر سُعِيم بن سُهيل فيرى على هذه الناقة هودجاً<sup>(١)</sup> تقىساً قد أقيت عليه أستارٌ من الحرير المطرز بالذهب المرصع بشئ من الجواهر ، فيستهويه ما يرى ، ويُسرع إلى العبد ورمه بضطرب في يده . فلا يكاد العبد يراه حتى يحول إليه زمام الناقة ويسعى بها بين يديه مستسلماً صاغراً ذليلاً . قال سُعِيم بن سهيل للعبد : من تكون هذه الناقة ؟ ولن يكون هذا الموج ؟ قال العبد في لمحات عربية كثيرة لا تكاد تبين : إنها ابنة أخت الأمير . قال سُعِيم بن سهيل لنفسه وهو يدفع العبد والناقة إلى بيته : حسبي من الغنيمة هذا العبد وهذه الناقة وما تحمل من متعة تقىس . فاما ربة الموج فليس مني ولست منها في شيء ، ولا أطيرُنَّ بها سيداً من سادات قريش .

ويسعى والعبد يسعى بالناقة بين يديه ، حتى إذا بلغ مضارب المي أولاً<sup>(٢)</sup> إلى العبد فأناخ الناقة ، ووقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يتتس فيها شيئاً . ولكن سعياً يوى إليه فينزل الموج عن مستقره على ظهر الراحلة ، ويتنحى فيقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يتتس فيها شيئاً . ويدنو سعيم من الموج متوفقاً ، ويرفع أحد أستاره متلطفاً ، ثم يمد بصره في الموج ، ثم يرده إلى نفسه وقد امتلا

(١) الموج : محل له قبة كانت تُركب فيه النساء .

(٢) أولاً : أشار

وجهه ابتساماً وإشراقاً وهو يقول : حامةٌ رشيقه أنيقة وربُّ البيت !  
 ذلك أنه رأى فتاة رائعة الحسن على سُمْرَةَ بشرتها ، بارعةَ الجمال ،  
 فاتنةَ اللحظ ، ليست بالطويلة ولا بالبدينة ، وإنما هي ضئيلة  
 نحيلة ، قد ملأها الذَّعْرُ وملكتها الروع ، ولكنها على ذلك جَلْدَة<sup>(١)</sup>  
 مهاسكة يصدّها الحياة والوقار عن أن تُنْظَهُ ما يملأ قلبها من تجزع  
 وهَلْعَ وَمِنْ تَوْلَهُ وَالْإِتْيَاعِ<sup>(٢)</sup> . ويَمْدُ عُصَيمَ بنَ سَهْلٍ نظره إلى الفتاة ثُمَّ  
 يرده إلى نفسه ووجهه يزداد إشراقاً وابتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن  
 يقول : حامةٌ رشيقه أنيقة وربُّ البيت ! ثُمَّ يخرج الفتاة من  
 هودجها سفيناً بها<sup>(٣)</sup> متلطفاً لها يقول : لا تُرَاعِي ، لا تُرَاعِي يا ابنتي ،  
 فلن أريد بك سوءاً ، ولن يمسك مني شيءٌ تكرهينه . ثُمَّ يأخذ  
 بيدها ويسعى بها مستأنياً<sup>(٤)</sup> ، والفتاة تُطْبِعُه . وكيف لها بغير الطاعة !  
 حتى إذا دخل بها إلى أهلها قال لامرأته في صوت حازم صارم :  
 استوصي بهذه الحمامـة خيراً ؛ فإن دار تخشم ليست لها بدار ،  
 وإنما مكانها عند سيد من سادات قريش . ثُمَّ يخرج فيحرز المدح  
 والنافقة والعبد ، ويعدو ليدرك الناهيين من بنى أبيه عسى أن يصيب  
 من الغنـية فوق ما أصاب ..

(١) الروع : الفزع . جَلْدَة : قوية شديدة ذات صبر .

(٢) التوله : الحزن الشديد . الإتـاع : احـراق القلب من المـم والـشـوق .

(٣) سفيناً بها : مـيـلـانـاً فـي إـكـرـانـها وـإـلـهـارـهـ الـقـرـحـ بها .

(٤) مستـائـاً : مـتـرقـقاً .

ولم يمض شهر بعد ذلك اليوم حتى كان سعيم بن سهيل عند خلف بن وهب الجمحي في ضيافة له بالسراة ، قد أقبل ومعه أميرته تلك الفتاة الحبشية حتى أناخ عند دار خلف . وتلقاه أهل الدار كما تعود العرب وكما تعودت قريش أن تتلقى ضيفها ، ولكن لم يكدر يفرغ من تحيته حتى قال : لو تعلم بماذا أقبلت عليك يا سيد جمسم ! قال خلف : بانlier ، وما أقبلتَقطَ إلا بغير . قال سعيم : أقبلت عليك بابنة أخت الأمير ، ذلك الذي أقبل غازياً للبيت فردة رب البيت مخدولاً مذحوراً<sup>(١)</sup> . قال خلف : ابنة أخت أبرهة ؟ قال سعيم : نعم ابنة أخت أبرهة . قال خلف ما اسمها ؟ قال سعيم : ما أدرى ، ولكن لم أكدر أرى جسمها الضئيل الرشيق الجميل حتى سميتها حامة ، وحتى رأيت أنها لا تصلح لأحد من خثعم ولا لأحد من العرب إلا أن يكون سيداً من سادات قريش حمة البيت وسدنة<sup>(٢)</sup> الآلة ، وأنت تعلم ما بيني وبينك من الخلف والود القديم . وهم خلف أن يسأله عما يريده لها من ثمن . ولكن سعيمما قال له عجلأ : مهلاً أبا أمية ، إني لم آتك بهذه الأميرة تاجراً ، وإنما أتيتك بها مطرباً لك هدية الصديق إلى الصديق . قال خلف : وصلتكم رجم<sup>\*</sup> ! وأظهر الرضا والاستبشر والشكر ، وعرف في دخيلة نفسه أن هدايا الأعراب تُقبل وتعجز بغير منها . ثم أمر بالفتاة فحوّلت إلى

(١) مذحوراً : مطروضاً .

(٢) السدنة : جميع سادات ، وهم خدم الكعبة ومحاجتها .

حيث أهلها ، لم ينظر إليها. ولم يخل بالنظر إليها ، ثم تحدث إلى سعيم فيها يتحدث فيه الضيف إلى الضيف ساعة ، ثم أطرق إطلاقة طويلة . ووقع في نفس سعيم أن طرفته لم تبلغ من نفس صديقه ما كان يريد . ولكن خلفاً يرفع رأسه ويقول : هل تعلم يا سعيم أنك لم تُسند إلى معروفاً كهذا المعروف الذي أسيديه إلى منذ اليوم ؟ إنما لم نقابل أبرهة ، ولم تَنْدُدْ عن البيت ، وإنما أمرنا أن نتفرق عنه وأن نترك حمايته لربه . وقد حمى صاحب البيت بيته وردّ عنا أبرهة وفيه وأحبشه ، ونحن نتظر إلى ذلك من قم الجبال ومن ثنياً بالطرق التي أويينا إليها وتفرقنا فيها . فلما ارتد عنا العدو ثُبنا<sup>(١)</sup> إلى مكة وعدنا إلى بيوتنا ، وفي نفوس كثيرة منا حسرات ، لأننا لم نؤدّ لهذا البيت حقه علينا من الديون عنه والقيام دونه<sup>(٢)</sup> . فأنت حين تحمل إلى هذه الأميرة إنما تتبع لي أن أشفق نفسي . فوربَ هذه البنية<sup>(٣)</sup> التي لم أذد عنها لأذلنَ أميرتك هذه الجبشية ذلاًّ لم تعرفه الحشيشيات بعد . وأول ذلك أنها لن تدخل مكة ، ولن تطأ أرض الحرم ، فقد رَدَ صاحبُ الحرم هذا الرجس<sup>(٤)</sup> عن أرضه وبنته . قال سعيم : وَيَحْلُكْ أبا أمية ! لو عرفت أنك ستلقى هذه الحمامنة الرشيقه الأنبياء

(١) ثُبنا : رجعنا .

(٢) الْرَدُّ عَنِ الْقِيَامِ بِوْنَهُ : الدفاع عنه وحمايته .

(٣) البنية : الكعبة .

(٤) الرجس : القدر والتقييخ .

هذا اللقاء السيِّء لآثرتُ بها نفسي . قال تَهْ متصاحكاً : هيهات ! إنما هو أمرٌ قد ذكره من هو أعظم حكماً ونفي سلطاناً . إن هذه الأميرة يجب أن تستدلُّ قريباً من هذا الحرم الذي أراد قومها أن يستدلُّوه ، وإنها ما عاشت لن تعرف الحرية ولن تلد الأحرار . قال سُليم : فأنت إذن تربأ بنفسك عنها<sup>(١)</sup> ، فارددها إلى . قال خلف وقد أغرق في الضحك : هيهات ! إنني أربأ بك أنت عنها أيضاً ! فقد قلت إنها ما عشتُ لن تلد الأحرار . إن لي في هذه الصيغة إبلاً وشباء يرعاها غلامان لي فيهم الأسود والأصفر ، فسترعى معهم هذه الإبل والشباء . وهم سُليم أن يراجع صديقه في بعض ما قال ، ولكن خلفاً حول الحديث وشغل صاحبه عنه بآباء اليمن وأحداث شهامة والحجاج . ودخل خلف على أهله بعد أن عشى الناس وتقدم الليل ، فأنقى امرأته محزونة كثيراً ، فلما سألاها عن أمرها لم تردد عليه سوابقاً ، وإنما قالت له في لمحات حزينة : ماذا ت يريد أن تصنع بهذه الفتاة الحشيشة الحسناء التي جلبها لك سُليم ؟ قال خلف وكأنه أراد أن يثير في نفسها شيئاً من غيظ : استوصي بها خيراً أم أمية : فإنها ابنة أخت الأمير صاحب الفيل . قالت أم أمية وقد أجهشت بالبكاء : لم يبق إلا أن نرفق بالذين غزوا دارنا وأرادوا أن يستبيحوا الحرم وأن يهدموا البيت . هنالك أقبل خلف على امرأته فسخ رأسها وهو يقول : لا عليك أم أمية<sup>(٢)</sup> ! فما أردت إلا إلى الدعاية . إن هذه الفتاة

---

(١) تربأ بنفسك عنها : تعامل وتترفع . (٢) لا عليك : لا تهتمي ولا تحزن .

لم تعرف في حياتها إلى الآن إلا العزة والكرامة ، وإنى قد أقسمت حين أهدتها إلى سليم إلا ترى منذ اليوم إلا الذلة والهون . إن لم أبل<sup>(١)</sup> ق حياة الحرم شيئاً من بلاء ، فلا أقل من أن أذل الحبشة في أميرتهم هذه . قالت أم أمية : فاجعلها لي خادماً إذن . قال خلف وهو يضحك : هيهات ؟ ليست خدمتك ذلة لها أم أمية . قالت أم أمية : اجعلها لي خادماً ، وسترى كيف أذيقها الذلة . قال خلف : قد فعلت على أن تقيم في ضياعتنا هذه بالسراة ، وعلى إلا تطأ الحرم ولا تدخل مكة ؛ فإن رب هذا البيت قد رد هؤلاء الناس عن الحرم ، وما أريد أن أخالف عن أمره ولا أن أوطئها الحرم ، حتى ولو كانت أمّة خادماً ، ولكنني سأرّعها الإبل والشأن فيمن يرعى الإبل والشأن من عبيتنا وإمائتنا . قالت أم أمية : ما أجدرك أن تسود في قريش !

وكان خلف غلام من مولىي الحبشة يقال له رَبَاح قد نيف على العشرين ، وكان ذكياً صناع اليد حازم الرأي ، قد أرضى سيده حتى أعتقه وجعله قيماً<sup>(٢)</sup> على ضياعته تلك في السراة . فلما أصبح خلف دعا إليه مولاه وقال وهو يبتسم : إيه يا رَبَاح ! هذه أميرة من أمرائكم قد جلبت إلينا أمّيس ، وقد علمت ما كان من قومك ،

(١) أبل في الحرب : أظهر فيها سهولة حتى بلاء الناس وامتحنه .

(٢) القيم على الشيء : المثول أمره .

ولاني قد أزمعت<sup>(١)</sup> أن أرديها الإبل والشاء ، فهل أكلها إلا أنا لذيقها من الذل والمuron ما أرى أنها أهل له ؟ قال رباح : وما يمنعك من ذلك وقد رأيت صنيعي بغلمانك على اختلاف أجناسهم ؟ ألس كذلك آخذهم بالخزم والصرامة حتى أحملهم على الحادة<sup>(٢)</sup> في خدمتك ؟ قال خلف : هو ذاك ، فخذ هذه الفتاة فألبسها ثياب الرعيان وأرسلها مع أمثاها . قال رباح : فإني لا أرى لها في هذا إذلالاً ولا امتهاناً ، ولكن عندى خطة أغرضها عليك عسى أن تبلغ بها ما ت يريد . قال خلف : هات . قال رباح : فإني لست من أمراء الجبشه ولا من سادتها وإنما أنا من دهشمائها<sup>(٣)</sup> ، وفي من الزنج عرق ، ولو لم أجلّب إلى بلادكم هذه لما طمعت أن أكون خادماً في قصر هذه الأميرة ؛ قال خلف وقد ابتسם قلبه وشعره : فأنت تريد أن تتحذها لنفسك زوجاً . قال رباح : إن كنت إنما تريده إذلاها وامتهاناها وإذلال سادة الجبشه وقادتها فاجعلها زوجاً لغلام زنجي من غلمانك . قال خلف : قد فعلت ، فكن لها زوجاً منذ الآن ، وإذا ارتفع الضحى فاضضم أهلك إليك .

وكان الزنجي في خطته هذه ماهراً ماكراً ، ولعله لم يعكر بسيده قبل يومه ذاك ولم يكذب عليه ؛ فقد عرف من شأن الأميرة

(١) أزمعت : عزمت ونورت .

(٢) الحادة : الطريق المستقيمة التي لا انحراف فيها ..

(٣) الدهماء : عامة الناس .

ما عرف ، واستبان له أن سيده يريد أن يسموها الخسف<sup>(١)</sup> ، وشق عليه ذلك ، وقدر في نفسه أن يعلم ما استطاع لصيانتها مما يُدَبِّر لها من المخواطن ، فلم يهد إلا إلى هذه الخطة . فلما رأى أن الأميرة قد أصبحت له زوجاً طابت نفسه واطمأن قلبه ورضي ضميره وعرف أنه سيسضمها إليه وسيستخدمها لنفسه صنيناً يخلص له الحب ويُؤثره بالولد ويقدم له من آيات الإكبار والإجلال ما يستطيع مثله أن يقدم لملتها في هذه الحال السيئة التي هما فيها . وعسى الأيام أن تحدث بعد ذلك أمراً .

وضم رباح زوجه لأميرة إليه ، فأسكنها داره الفقيرة الحقيرة ، وجد في إكرامها والرقق بها ، واحتضنها بكل ما استطاع أن يحتضنها به من الحب والملودة والتوقير ، يغدو عليها بما تحب ، ويروح عليها بما تحب ، ويُجنبها ما تكره<sup>(٢)</sup> أثناء النهار ، فإذا كان الليل وأن له أن يأوي إلى مضيجه ألق وسادة من وراء باب البيت ورثي نفسه عليها ، وأنفق الليل نائماً أو يقطن يعني بزوجه ويشرب عليها ، لا يمسها ولا يدنو منها .

وقد أقبلت الفتاة على زوجها مذعنة مستكينة<sup>(٣)</sup> . فلما رأت إكباره لها ورقمه بها اطمأنت إليه وأنست به واحتفظت بمكانتها منه ، فجعلت

(١) يسموها الخسف : يدخلها .

(٢) يجنبها ما تكره : يبعد عنها .

(٣) مذعنة مستكينة : منقادة خاضعة ذليلة .

تتحدث إليه حديث السيد إلى العبد ، ولكن في شيءٍ من التواضع والأنة وحسن التأني ، وجعل هو كلما رأى منها رفقاً به وعطفاً عليه ازداد لها حباً واشتد إكباره لها وتوقيره لمكانتها . وأنفقا على ذلك أشهراً وأشهرأً والفتى حتى<sup>(١)</sup> بزوجه لا يدع شيئاً يقدر عليه إلا أيام ليجنبها ما تكره ، ول يجعل الرق أخف عليها حلاً ، وليس لها الصبر على محنتها . ولكن أمور الناس تجري على غير ما يقدرون ويدبرون .

فقد أزعج الفتى في نفسه أن يسير مع هذه الفتاة سيرة الخادم المهن مع السيدة الكريمة المستعلية التي تحمل كل أمره كل شيء ، وأزعج في نفسه أن هذا الزواج ليس إلا خداعاً لهذا السيد العربي الذي أراد أن يهين أميرة من أميرات الحبشة . وأيَّ بأس عليه في أن ينصح لسيده ما وسعه النصيحة ، وينخلص في خدمته ما وجد إلى الإخلاص فيها سبيلاً ، ويقوم على ماله أحسن قيام وأرقنه : يدبّره ويشرمه كأحسن ما يكون التدبير والتممير ، لا يستثنى من ذلك كلُّه إلا هذه الفتاة ؛ فإنه لا ينصح فيها ملواه ، ولا يطيع فيها أمره ، وإنما ينصح فيها لنفسه وقومه ، فيؤثرها بالحب ويختصها بالإكبار والكرامة رعاية لنزلتها في بلادها تلك البعيدة النائية .

هي زوجه عند خلف وأقاربها من سادة قريش ، وهي زوجه

(١) حتى بزوجه : مبالغ في إكرامها وإظهار الفرج بها .

عند هؤلاء الغلمان الذين يسوهم بالحزم وياخذهم بالعنف ، ولكنها مولاته وأميرته فهَا بينها وبينه وفيها بينه وبين نفسه .

أضمر الفتى ذلك في قلبه ، وفهمت عنه الفتاة ما أضمر ، فقبلته راضية ، واطمأنت إليه مغبطة ، واعتقدته في صميمها محلصة ، وسارت معه سيرة الأميرة لا سيرة الزوج ؛ ولكنها يغدو عليها بالطاعة والرضا ، ويروح عليها بالطاعة والرضا ، يقوم دونها<sup>(١)</sup> ما أضاء النهار ، ويسمّر عليها ما أظلم الليل . وهي ترى ذلك لها حقاً أول الأمر . ثم تفكّر وتقدّر فتعلّم أنها أمّة<sup>(٢)</sup> ليس لها حق على أحد ، وإنما لسادتها عليها الحق كل الحق ، وهذا الغلام عليها نصيب من حق سادتها ، فهم قد جعلوها له زوجاً ، وجعلوا له عليها حقاً .

تفكر الفتاة في هذا فتتأي عنده بجانبها أول الأمر ، ثم تعاود التفكير فيه وتعاود النأي عنه . ثم يتصل تفكيرها فيه ، ويتصل بر الفتى لها ورفقه بها وإثاره إياها بالطيب من نفسه وبالطيب من الحياة ، إن كان في حياة الرقيق شيء من الطيبات . وإذا الفتاة تجد في نفسها عطفاً على هذا الفتى ، ثم ميلاً إليه ، ثم احتياجاً إلى مكانه منها ، ثم وحشة حين يغيب عنها فيطلب العياب .

وتمضي أيام وأسابيع والفتى ماض في حبه الحالص وبره الصادق ، والفتاة ماضية في هذا الاضطراب القلق المقلق . ثم تحس الفتاة

(١) يقوم دونها : يحبّها ويحافظ عليها .

(٢) أمّة : باربة .

حاجتها إلى أن تأنس إلى الفتى أكثر مما أنس إليه ، وإلى أن يأنس الفتى إليها أكثر مما أنس إليها أثناء هذه الشهور الطوال . تود لو استطاعت أن تُلغى ما بينها وبينه من الكلفة ، وأن تتحدث إليها ويتحدث إليها حديث الرفيق . ولكنها لا تجد الوسيلة إلى ذلك قريبة ولا ميسرة ؛ فقلبها يبسم الفتى ، وثغرها يريد أن يتسم فبرده عن الابتسام ففصل من حياء : ولكنها مع ذلك تلحظ الفتى حين يُقبل عليها أو حين يتحدث إليها في بعض الأمر لحظاً فيه شيء من دعوة ورفق وأنس ، ويبلغ لحظتها من الفتى أعمق نفسه فيملؤها غبطة وفرحاً ورضاً ، ثم لا يزيد على ذلك .

فلم يُحدث الفتى نفسه بأمل قريب أو بعيد ، ولم يُخطر الفتى على باله أن من الممكن أن تُلغى المسافات والأماد بينه وبين أميرته ، أو ينظر إليها ذات صباح أو ذات مساء نظرة الطامع أو الطامح ، وإنما هي بالقياس إليه أميرة قد استقرت على عرش يمكن أن يرق إلىه الطرف ولا يمكن أن ترق إليه النفس . فضلاً عن أن ترق إليه القدمان . وكذلك أصبح الأمر بين هذين الرفيقين أمراً عجباً : هنا زوجان أمام الأحرار والرقيق ، وهذا زوجان أمام العرف الذي اصطلح الناس عليه . ولكن الفتى يكبر الفتاة عن أن تكون له . زوجاً ، والفتاة لا تكبر نفسها عن ذلك . ولا تمنى شيئاً غيره . ولا تجد السبيل إليه . حتى استحالـت الصلة بيـنـهما إلى شيء غير مألف

فالفتاة عاشقة وامقة<sup>(١)</sup> ، ولكن التي يرى نفسه أقل من العشق وأصغر من الومق . وربما ضاقت الفتاة بهذه الصلة التي جعلت تنكرها ، وربما وجدت<sup>(٢)</sup> على الفتى وظنت به الغرور والكبرباء ، وإن لم يجد الفتى في نفسه إلا التواضع والهوان . ولو لا حرص الفتى على أن يكون رفيقاً ريقاً ، وحرص الفتاة على أن تكون عارفة للجميل شاكرة للنجمة مقرة بالمعروف ، بحاج أن يفُسِّد الأمر بينهما . والفساد لا يُسرع إلى شيء كما يسرع إلى صلة المحبين حين يبلغ بينهما أقصاه ، وحين تثور الصعاب وتقوم العقاب<sup>(٣)</sup> بينه وبين غايته . فقد جعل صدر الفتاة يضيق ، وجعل السم يسمى إلى نفسها ، وبجعلت لا تُحس شيئاً إلا أنكرته ، وبجعلت تشعر بأن خلقها ي يريد أن يسوء ، وأحسن الفتى منها بعض ذلك ، فغلا في الرفق<sup>(٤)</sup> ، وأمعن في التلطف . واشتد ضيق الفتاة بذلك حتى قالت له ذات يوم : إنك لتغلو في الرفق بي والتلطف إلى ، وإنك لتريد الإحسان فتخطئه إلى الإساءة ، وإنك لتعلم أنى محتاجة منك إلى شيء غير هذا التلطف والرفق . قال الفتى في تواضع وتضاؤل : وما ذاك ؟ قالت الفتاة في

(١) وامقة : محبة عاشقة .

(٢) وجدت عليه : غضبت .

(٣) العقاب : جميع عقبة ، وهي المرق الصعب . وتقوم العقاب بينه وبين غايته : تحول الأمور الصعبة دون ما يريد .

(٤) غلا في الشيء : يبالغ فيه .

سحرية مُرَّة لاذعة تمزق القلب : إنك لتعلم أنك حر وأني . . . قال  
 الفتى : مهلا ! إني حديث عهد بالحرية ؛ فقد كنت قنَا<sup>(١)</sup> منذ عامين .  
 قالت : قنَاً منذ عامين ، وقد رُدْتُ إليك الحرية وانخرط عنك الرق<sup>(٢)</sup> ،  
 فأنت أرفع مني مكاناً وأحسن مني حالاً . فما تواضعك وتضليلك  
 وإمعانك في العناية بما مضى من الدهر ، وأنت خليق لا أقول بأن  
 تستكبر وتستعمل ، وإنما أقول بأن تذكر ما نحن عليه اليوم ، وما  
 يمكن أن نصير إليه غداً . إنك لتذكر أنك كنت أميرة ، وتحفظ  
 لي حق الإمارة ، ولكنك أجرأ أن تذكر أن الإمارة قد مضت  
 مع الأيام التي مضت ، وأني قد صرت إلى الرق حين هدتَ أنت  
 إلى الحرية . وأنت بعد هذا كله قد اتخذتني زوجاً . قال الفتى :  
 إنما اتخذتني زوجاً لأردَّ عنك ما يواد بك من سوء . قالت الفتاة :  
 فقد فعلت ، وإنَّ لذلك لشاكرة ، ولكنك اتخذتني لنفسك زوجاً ،  
 فليكن الأمر بيننا كما يكون بين الأزواج . هنا لك : انتهت<sup>(٣)</sup> دموع  
 غزار من عيني الفتى ، ولم يعرف أكانت دموع الحزن أم دموع  
 السرور . وهنالك صعد الدم إلى وجه الفتاة فأسبغ عليه حمرة قانية  
 لم تعرف أكانت حمرة الخجل أم حمرة الابتهاج بأنها قد اقتحمت  
 ما كان بينها وبين زوجها وشقيق نفسها من العقاب .

(١) القن : العبد .

(٢) انخرط عنه الرق : صار حرراً .

(٣) انتهت : سالت .

أقبل خلف ذات يوم فالم بصيغته في السراة، وعرف من أمرها ما كان يريد أن يعرف ، وسمع من قيمته رباج ما كان يحب أن يسمع ، ورضى بما رأى وما سمع وما عرف . فأمور الصيغة تجري على خير ما كان يحب : مال كثير ، وغلة غزيرة ، وأمانة من رباج لا يرقى إليها الشك . وقد بلغ الرضا من نفس خلف أن تنتهي أن يحسن إلى قيمته وأن يكافئه على ما بذل من جهد . فآهدي إليه إبلًا وشاة، وفضلًا مما تغله<sup>(١)</sup> الصيغة من ثمر الأرض . وتلقى منه شكره للجميل ، فاغتبطت نفسه واطمأن قلبها . وهم القيم أن ينصرف راضياً موفوراً، ولكن خلفاً يستوقفه ويأسله في دعابة حلوة : إيه يا رباج ! أيكا العقيم ؟ فقد مضى دهر منذ أملكتك تلك الحمامنة الحبشية؛ ولم أر لكما ولداً . فويجم القيم شيئاً ; وهم أن يتكلم ولكن الحياة عقدَ لسانه، فغضى بصره وأطرق إلى الأرض . وألح عليه خلف<sup>\*</sup> في السؤال وأعاد إليه مقالته متضاحكًا : إيه يا رباج ! أيكا العقيم ؟ قال رباج وقد عاد إليه شيء من جراة وشيء من حفاظ<sup>(٢)</sup> : وما يعنيك أن نعم أو أن يكون لنا الولد ؟ قال خلف : على رسالك<sup>(٣)</sup> يا رباج !! إن تكون سرًا فإن حمامتك أمة . قال رباج مغضباً : فأنت إذن زوجتيها تستغلها وتستغلني كما تستغل الإبل والشاة ! قال خلف<sup>\*</sup> : إنك

(١) تغله : تخرجه من الفلة .

(٢) الحفاظ : الآفة والحبس والمحافظة .

(٣) على رسالك : على هبك ، ثان .

لغصوب يا رباح . إن لم أرد أن أسوءك ، وإنما أردت أن أرق  
 بك وأن أعرف بعض أمرك . قال رباح : فاغرف إذن من أمرى  
 ما تحب . ثم ضرب بيده على جبتيه وهو يقول : ويلاء ! لقد  
 أنسنت أنها أمّة ، وأن ابناً سيكون قنّاً مثلها . قال خلف : وإن  
 لها لابناً يا رباح ؟ قال رباح : نعم ، ولو أطاعتني نفسى ، ولو  
 أطاعتني هي لرأدته<sup>(١)</sup> كما تندون بناكم ؛ فليس مما يسر ولا يرضي  
 أن يعرف الرجل أنه يستفحل كما تستفحل الإبل . قال خلف : وقد  
 بدأ في صوته شيء من الأسى : وينحك يا رباح ! إنك لتشق  
 على نفسك وتشق على غير طائل . وآيم الله ما أردت استغلالك  
 ولا استفحالك ! وإنك لتذكر كيف تقدمت إليك أن تُرْعِنِي  
 بهذه الفتاة مع رعيانا ، فتمنيت على أن أجعلها لك زوجا ،  
 وزعمت أن ذلك أبلغ فيها كنت أريد لها من الذل . فما خطبك ؟  
 وماذا عرَض لك ؟ ... هنالك ثابت إلى رباح نفسه ، وذكر  
 احتياله في صيانة الأميرة مما كان يراد بها من سوء ، وذكر أنه لم  
 يخدع مولاه ولم يكذب عليه قط إلا هذه المرة ، وحرَص على  
 أن يتحقق خداعه وكذبه مخافة أن يصيبه ويصيب زوجه بعض  
 الشر ، فقال وهو يتكلّف ضاحكاً خير منه البكاء : وماذا ت يريد أن  
 أقول لك ؟ لقد وقعت في نفسى فأحببها . قال خلف : أحببها

---

(١) وأدته : دفته حيّا .

وكنت ت يريد أن تُذلّها ؛ قال رياح : أميرة صارت إلى الرق وَزُوِّجت من عبد لم يكن ليطبع في خدمتها ، فاحتملت ذلك مذلةه<sup>(١)</sup> له ؛ ثم راضية عنه ، ثم سعيدة به ، فكيف تريد أن أذلا أو أهينها ؟ قال خلف في صوته الحزين : هو ذاك ؛ هو ذاك ! قد ألغى الرق ما كان بينكما من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة . قال رياح متضاحكاً : أليس غريباً أن يكون الرق هو الذي ينحوى بين الناس ويلغى ما بينهم من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة ؛ وأن تكون الحرية هي التي تفرق بين الناس فتجعل منهم الغنى والفقير وال قادر والعاجز والقوى والضعف والسيد والمسود ؟ مني يتفضى هذا الليل ؛ وهي يُسْفِر عن الصبح المشرق الجميل ! قال خلف ! وَبِحَلَك ! ماذا تقول ؟ أى ليل وأى صبح ! قال رياح : الليل هو هذا الدهر الذي نعيش فيه والذي يسوى فيه الحق بين الأرقاء ، وتفرق فيه الحرية بين الأحرار . والصبح هو الزمان المُقبل الذي يسوى فيه بين الأحرار والعبد ، ويبايز الناس فيه بأعذلم وبأ لأنهم ؛ لا بمناظم وحظوظهم من الثراء . قال خلف ، وقد أغرق في الضحك : لقد تكهنت يا رياح منذ اليوم ! دع ليك المظلوم وصحيح المشرق . وحدثني عن صبيك هذا الذي كنت ت يريد أن تلهه منذ حين ، ما اسمه ؟ وما شكله ؟ قال رياح : إنك لتسخر من ليلي وصباحي .

(١) مذلةه : منقادة خاصة .

وإن ليل لمجتل ، وعسى أن ندرك انجلاءه ، وإن صبحي لمسفر  
 وعسى أن ندرك إسفاره ؛ فإن لم ندركه نحن فسيدركه ابنك أمية  
 وسيدركه ابنى بلال . فهزَ خلف رأسه ورفع كفيه وقال : سَحْبُك  
 يا رياح ، تحدث بهذا إلى غيري ؛ أما أنا فإني زائد في عطائك  
 لمكان هذا الصبي من أسرتك ، ولو لا أن قسماً عظيمها قد سبق مني  
 لرددت إلى زوجك حريتها وبخلعت ابنك حراً مثلثاً، ولكنك تعلم أنها  
 أقبلت غازية لنا مستخفة بنا متهكمة لحرماتنا<sup>(١)</sup> فأمسك عليك أهلك<sup>(٢)</sup> ،  
 وعيشا سعيدين بصبيكما ، فلك يمسكك ما جييت سوء ، ولكنني  
 أقدر لكم على أكثر من ذلك . قال رياح وهو يهز رأسه ساخراً :  
 أقبلت لكم غازية ! أقبلت لكم غازية ! وماذا . كانت تعرف  
 من أمر الغزو ! لقد كانت فتاة غافلة لا تكاد تعقل نفسها ، ولكن  
 الكبار يأمون فيؤخذ الصغار بآثامهم . قال خلف<sup>(٣)</sup> : ما رأيت كالليوم  
 حكينا . انصرف الآن عن واستقبل حياتك سعيداً موفوراً ،  
 ولا تدع حكمتك هذه في الناس فيصييك منها بعض ما تكره .

وعاش رياح وحاما ما شاء الله أن يعيشها ، قد رضيا من الحياة  
 بما قسم لهم ، وفرغ لابنهم بلال وأخيه الذي نسي التاريخ اسمه  
 وذكر بعض أمره ، ينشئانهما كما تعود أمثالهما تنشئ أبنائهما في  
 منزلة وسط بين منزلة الأحرار ومتزلة الرقيق .. ثم انصرفوا عن هذه

(١) متهكمة لحرماتنا : معتدية علينا . واتهك حرمته : تناولها بما لا يحل .

(٢) أمسك عليك أهلك : احتفظ بهم .

الدنيا وتركا فيها هذين الغلامين يعلمان في ضياعة خلف ، ويسيعيان ، في خادمة جحّم كلها . وعاش خلف ما شاء الله أن يعيش ، ثم انصرف عن هذه الدنيا وترك ابنه أمية فتى قويًا جدًا ، وارثًا مع إخوته لما ترك من العروض والأرض ومن النعم والرقيق . لم يشهد رياح ولم تشهد حامة ولم يشهد خلف انسحاص الليل المظلم وإسفار الصبح المشرق ، وإنما رأى بلال إسفار الصبح ، فامتلاً قلبه به نوراً ، ورأى أمية إسفار الصبح فامتلاً قلبه به ظلمة . وآل<sup>(١)</sup> أمر بلال إلى أن أصبح من أحب الناس إلى النبي وآثرهم عنده؛ وأن أمر أمية إلى أن أصبح من أبغض الناس إلى النبي حتى قُتل يوم بدر ، وأورث بغضه وعداءه للنبي أخيه أبي ذلك الذي هم أن يقتل النبي يوم أحد ، ولكن النبي يمسه برحمه فيفتح له باب الموت .

ويقبل أمية ذات يوم ليشهد ما كان أبو جهل يصب على آل ياسر من العذاب ، فيقف ثم ينظر ثم يرى ثم يهز رأسه ثم يقول لأبي جهل : إذا كان الغد فأقبل على دار جحّم لترى كيف تعذب الصابئين من مستضعفينا ، وكيف تعذب زعيهم بلا !

---

(١) آل أمره : دبع وانتهى .

شدَّ ما تعنفون الصبي وتشتطون عليه<sup>(١)</sup> ! ما رأيت كاليلوم  
رجالاً قساة القلوب جفاة الطياع غلاظ الأكباد ! . . .

قالت ذلك أم أنمار، ثم ألقت بنفسها بين أولئك الرهط<sup>(٢)</sup> من أعراب  
بني عامر؛ فجعلت تدفع في صدر أحدهم بقبضته يدها اليمنى، وتتجذب  
ثوب أحدهم الآخر بيدها اليسرى. تريد أن تردهما عن ذلك الصبي  
الذى ألحوا عليه صنعاً وتأنياً<sup>(٣)</sup>. وكان أولئك الرهط من بنى عامر  
قد أقبلوا من نجد يسوقون بين أيديهم مطاييا تحمل تجارة من حب  
العراق. فلما باعوا تجارتهم وباعوا الرواحل التي كانت تحمل هذه  
التجارة، أرادوا أن يبيعوا غلامهم ذاك؛ فعرضوه هنا وهناك،  
ولكنهم لم يجدوا طالباً له ولا راغباً فيه. فأحْفَظْتَ<sup>(٤)</sup> عليه نفسهم  
وقشت عليه قلوبهم، وهما أن ينصرفوا به ليعرضوه على من يمررون

(١) عنده : عامله بشدة ولم يرق به ، اشتبط أفرط فيظلم.

(٢) الرهط : الجماعة دون الشرة.

(٣) صفعه : ضرب قفاه أو بذنه بكفه مبوطة. وصفعه : ضربه على رأسه . وأنبه : عنته ولامة.

(٤) أحْفَظْتَ : أخضبه.

بهم من أحياء العرب ، لعلهم أن يجدوا له مشترياً . ولكن الغلام أظهر شيئاً من المتنع والتأني ؛ كانت نفسه تكره أن ينقلب معهم لكتراً بما صبوا عليه من الأذى وما نالوه به من المساعدة . فلما أظهر الامتناع عليهم جدوا في تأدبيه وتأنيبه . وأدركthem أم أنمار الخزاعية وهم يصنعون به هذا الصنبع ، فرق له قلبها ، ورحته مما كان يلتقي من الضر ، فاندفعت تردهم عنه وتحميصه . قال أحد: أولئك الرهط من بني عامر لأم أنمار : ما أنت وذاك ؟ ما رأينا كاليلوم امرأة سوء ؟ ولو كنت في غير هذا الحرم لمسك منها بعض ما تكرهين . قالت أم أنمار وقد أخذ الغضب يسكن عنها : وأخذ الابتسام يسعى في وجهها المتجمدة : ولكن في هذا الحرم . فلن تصل إلى أيديكم . ألا تستحيون من أجسامكم هذه الطوال العراض ؛ ومن حاكم هذه التي وخطها <sup>(١)</sup> الشيب ؛ ومن لم يحكم <sup>(٢)</sup> هذه التي ترسلونها على أكتافكم أن تبطشوا بهذا الصبي النحيف الضعيف ! قال أحد العامريين : لو أهلك من طعامه ومؤنته ما يهمنا لما رحته ولا رفقت به ! إنه والله لغلام سوء ؛ يكلفنا من المؤونة ما يكلفنا ثم لا يعني عنا شيئاً ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يخالف عن أمرنا ويأتي أن يتبعنا : كأنما أعجبته هذه القرية مع أنه لم يعجب من أهلها أحداً . قالت أم أنمار : فإنه قد أعجبني . قال العامري : فأدأي إلينا ثمنه ثم

(١) وخطها الشيب : خالط سواد شعرها .

(٢) الله : الشمر الجلوز شجنة الأذن .

خديه ، لا باركت الآلة فيه . وكانت بينهم وبين أم أنمار مساومة طالت والتوت وكثير فيها الأخذ والرد والخذب والشد ، وانتهت بشراء أم أنمار للغلام بثمن بحسن دراهم معدودة . وانصرف العامريون وقد ألقوا عن أنفسهم عيناً ثقيلاً . وعادت أم أنمار إلى دارها في حي بني زهرة تجرّ بيدها هذا الغلام الضئيل التحيل الذي مسه الضرب بلغ منه الجهد . وكاد يقتله الجوع . وكانت كلما مرت بجماعة من رجال بني زهرة أو نسائهم قال لها أولئك أو هؤلاء : وَيُحَلِّكْ أُمْ أَنْمَار ! ما هذا الطفل الذي تجرينه ؟ ! فتجيب : وما أنت وذاك ! غلام اشتريته لأنّي منه من خوف وأطعنه من جوع وأتخذه لخدماتي ولا بني رفيقاً .

وبلغت أم أنمار بالغلام دارها فأطعنته وسته وكسته حتى رضى وحتى ظهر في وجهه البائس الحزين شيء من رضا وأمن وابتسام . ثم آخت بينه وبين ابناها عبد العزى وتركهما يلعبان ، وانصرفت لشأنها ، فطوقت في دور كثيرة من دور مكة ومعها أداتها التي كانت تكسب بها قوتها وقوتها ابناها ، وكانت نحاتة . وكانت تقول في نفسها منذ ذلك اليوم : وَيُحَلِّكْ أُمْ أَنْمَار ! قد كنت تعولين نفسك وصبيّاً واحداً فأصبحت تعولين نفسك وصبيّين . ثم تقول لنفسها : لا تراعي أم أنمار ! فإنّ هذا الصبي متى استرد شيئاً من قوّة وتقدمت به السن شيئاً فقد ينفعك وَيُغْلِي عليك<sup>(١)</sup>

(١) يغل عليك من المال : يأتيك به ، أغفل على عياله أتم بالثلة .

من المال ما يقيم أوده<sup>(١)</sup> ويعينك على ناثبات الأيام .

وكانت أم أنمار هذه امرأة نُخَرَاعية قد ألمت بمكة وتزوجت من بعض أحلاف زهرة فيها ، وعاشت تسبى بأداتها في دور قريش ، وكان الشباب قد انصرم عنها ، وجعلت الشيخوخة تسبى إليها مبطنة ، وكانت كثيرة الصمت ، إلا أن ثثار إلى الكلام ، وهناك لا تجد إلى السكت ولا يجد إليها السكت سبيلاً .

فليها عادت مساء ذلك اليوم وجدت ابنها وغلامها قد تصرفوا ففنون اللعب حتى أدركهما بعض الجهد ، فأطعثتهما وسقتهما ، ثم أخذت تتحدث إلى الغلام في دعة ورفق . قالت له : ما اسمك يا بني ؟ قال الغلام : خباب . قالت أم أنمار : خباب ابن من ؟ قال الغلام : خباب بن الأرت . ولكنه لم ينطق الراء كما ينطقها الصبية حين يكمل تحلقهم وتستقيم ألسنتهم ، وإنما انحرف بها بين شيء إلى اللام والياء . قالت أم أنمار : خباب بن الأرت ؟ من أى أحياء العرب أنت يا بني ؟ قال الغلام : أحياء العرب ! أحياء العرب ! لا أدرى . قالت أم أنمار : أتعجمى أنت ؟ قال الصبي : أتعجمى ؟ أتعجمى ! لا أدرى . قالت أم أنمار : وما اسم أمك يا بني ؟ هنا لك انتحب الصبي حتى رق له قلب العجوز ، ففكفت عن سؤاله ، وجعلت ترقن به وتكتشف دمعه حتى ثاب إليه شيء

---

(١) الأود : الاعوجاج والكله والتسب . ويقيم أوده : يسد حاجته .

من طمأنينة وهدوء ، ثم آوته إلى مضجعه ، وما زالت تلطف به حتى  
أسلمته إلى النوم ، وقد أرجأت تعرف قصته إلى غد أو بعد غد .  
وقد حاولت أم أنمار من الغد ومن بعد الغد أن تستوفى قصة  
الصبي ، فعرفت منه بعد لاي وبعد تحبيب وشهيق ، وبعد رفق  
كثير به واعطف كثير عليه ، أن هؤلاء الرهط من بنى عامر أصابوا  
أسرته على غرة والحي خلوف<sup>(١)</sup> ، فقاومهم أبوه ما استطاع . ولكنهم  
قتلوا على أعين امرأته وأبنته الفتاة أسماء وأبنته هذا الصبي ، ثم  
استأقوا ماله وسبوا أهله<sup>(٢)</sup> ، وباعوا أمنة في سبي من أحياط العرب .  
وباعوا أخته في سبي آخر من أحياط العرب ، وأقبلوا به بمال أبيه ،  
فباعوا المال في غير جهد ، وكسد الصبي في أيديهم<sup>(٣)</sup> حتى اشترقه  
أم أنمار . ومنذ ذلك الوقت لم تسرِّ أم أنمار مع هذا الصبي سيرة  
السيدة مع العبد . وإنما سارت معه سيرة الأم مع ابنها . ومضت  
الشهور والأعوام . وأنسى الفتى أو كاد ينسى أنه غلام أم أنمار .  
واستيقن الفتى أو كاد يستيقن أنه ابنها وأنحو ابنها عبد العزى ،  
وشب وقد وطن نفسه<sup>(٤)</sup> على أنه تميي حليف لبني زهرة . ولما استطاع  
العمل أسلمته أم أنمار إلى رجل قفين<sup>(٥)</sup> تعلم عنده صناعة الحديد

(١) القرة : الفلة . خلوف : غائبون .

(٢) استأقوا ماله : استولوا على إبله وساقوها أمامهم . وسبوا أهله : أسر وهم

(٣) كسد الصبي : لم يبع لقلة الراغبين فيه .

(٤) وطن نفسه على الأمر وللأمر : هيأها لفعله وحملها عليه .

(٥) القفين : الحداد ، جمعه قفين وأقين .

والسلاح ولم ينل على العشرين من عمره حتى كان قد كسب لأمه ولنفسه شيئاً من مال ، واشتغل بمحانوت يتخذ فيه صناعة الحديد والسلاح ،

وقد نشأ الغلام نشأة أمثاله من هؤلاء الأخلاط الذين يُخْلِبُون إلى مكة أو تلقى آباءهم إليها الأقدار . نشا غلاماً لا يحسن ثقل الرق ، ولكنه لا يذوق حلاوة الحرية ، وإنما هو شيء بين ذلك ، ليس كامل الرق وليس كامل الحرية . يرى من حوله شيئاً سادة وشياً مترفين ؛ ويروي من حوله شيئاً أذلة مستضعفين وشياً تطمح نفوسهم وتقصـر أيديهم وهـمـهم وأسـبـاهـمـ عن بلوغ ما يطمحـونـ إليه . وقد استقر في نفوس الشيوخ المستضعفـينـ إذـعـانـ للـقـدـرـ واستسلامـ للـقـضـاءـ ، وأظهـرـوا لـسـادـاتـهـمـ الإـكـبـارـ وأصـمـرـوا لـهـمـ الـبغـضـ والـشـنـآنـ<sup>(١)</sup>ـ . واستقر في نفوس الشباب الطامعين غـيـظـ لاـتـفـطـأـ نـارـهـ ، وـحـسـدـ لاـتـكـسـرـ حدـتـهـ<sup>(٢)</sup>ـ ، يـرـونـ أـنـهـمـ لـيـسـواـ أـقـلـ مـنـ الشـيـابـ المـرـفـينـ ذـكـاءـ قـلـوبـ ؛ وجـلـاءـ عـقـولـ وـنـفـاذـ بـصـائـرـ<sup>(٣)</sup>ـ ، وـلـكـنـهـمـ أـقـلـ مـنـهـمـ مـاـلـاـ وـأـضـعـفـ مـنـهـمـ قـوـةـ وـأـقـصـرـ مـنـهـمـ يـدـاـ ، قدـ أـمـسـكـهـمـ الـحـيـاةـ فـحـالـ لـاـ تـلـامـهـمـ وـلـاـ يـلـامـهـاـ ، وـجـيلـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ الرـقـ إـلـىـ خـيـرـ مـنـهـاـ ، وـقـضـىـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـظـلـلـواـ أـتـبـاعـاـ ، يـجـيـئـونـ أـتـبـاعـاـ وـيـمـوتـونـ أـتـبـاعـاـ ، لـاـ أـمـلـ لـهـمـ فـسـعـةـ

(١) الشـنـآنـ : الـبغـضـ والـعـداـوةـ .

(٢) لاـ تـكـسـرـ حدـتـهـ : لـاـ تـخـفـ شـدـتـهـ وـلـاـ يـسـكـنـ .

(٣) نـفـاذـ بـصـائـرـ : سـلـامـةـ تـفـكـيرـ .

ولا في دعة<sup>(١)</sup> ولا في مجد ولا في ارتقاء . فهم كالخياد المشدودة الى  
 تعلق<sup>(٢)</sup> شكائهما ، ويقاد المرح والنشاط يُخرجها من جلودها .  
 وكان هؤلاء الشباب إذا خلا بعضهم إلى بعض تحدثوا في حالتهم  
 تلك فتناً من الأحاديث ، كانت تنهي بهم دائمًا إلى الحسرة الدفينة  
 والغيط المكظوم . كانوا يقلّبون وجوههم فيما حولهم من القرى الحاضرة ،  
 ومن أحياه العرب البدائية ، فتقطع بهم الآمال ، ويسرون إلى العجز  
 واليأس . يرون أن الحياة في مكة خير ما يمكن أن يتاح لهم ولأمّالهم  
 من ضروب العيش . في مكة الأمن والسلم ، والقوت يُكسب في غير  
 مشقة شاقة ولا جهدا عسيراً . وليس في مكة مغامرة بالنفس  
 ولا بالمال . وفي مكة الموسم الذي يجلب إليها وإلى ما حولها قبائل العرب  
 وتتجار بها من كل فج . فالحياة فيها وادعة خصبة ، ولكنها على ذلك  
 مُغلقة إلا على الذين يُتيح لهم الغنى والمولد وشرف النسب أن يفتحوا  
 أبوابها وينحرجو منها إلى آفاق الأرض بعيدة ، ثم يعودون وقد ملنوا  
 أيديهم بالمال ومتعوا أنفسهم بالرحلة والتنقل في الأقطار . ولكن خباباً  
 يلتقي صديقاً له ذات يوم ، فلا يكاد يتحدث إليه ببعض ما كان  
 يدور بيدهما من حديث حتى يرى منه أزوراراً<sup>(٣)</sup> عن اليأس وانحرافاً  
 عن الحزن وتعلقاً بأمل مشرق بعيد . يقول خباب لصاحبه : ما خطبك ؟

(١) الدعة : الراحة وغضض العيش .

(٢) تعلق شكائهما : تمضن الحديدة المترضة في قها .

(٣) الأزورار : المدلول عن الشيء والاتعraft عنه .

إني لأرى من شائق شيئاً لم أعهده ، وما أنكرتُ من صديق أحداً كما أنكرك منذ اليوم . فلا يحبه صديقه بما تعود أن يحبه بمثله من رَجْعِ الْحَدِيثِ ، وإنما يتلو عليه : « اقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَنِي . خَلَقَ النَّاسَ مِنْ عَلَقٍ »<sup>(١)</sup> . اقْرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنِ . عَلِمَ النَّاسَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . كلا ، إنَّ النَّاسَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى . إِنَّ إِلَيْ رَبِّكَ الرُّجُوعَ » .

فلا يكاد خباب يسمع هذا الكلام حتى تجري في بدنـه رعدة تصطـلـكـ لها أنسانـه وركـبـاه<sup>(٢)</sup> ، ويـزـكـه صـاحـبـه سـاعـةـ ، حتى إذا هـدـأـتـ رـعـدـتـهـ وـثـابـ إـلـيـهـ أـمـنهـ وـاسـتـقـرـ جـسـمـهـ ، قـالـ لـصـاحـبـهـ : وَيَسْحَكَ إِنْ أَعْدَ عَلَيْ ما قـلـتـ ؟ فـلـانـيـ أـجـدـ لـهـ فـيـ قـلـبيـ حـرـأـ وـلـاـ يـكـادـ عـقـلـ يـفـهـمـهـ . وـيـعـيدـ عـلـيـهـ صـاحـبـهـ تـلـكـ الـآـيـاتـ مـرـةـ وـمـرـةـ . وـإـذـاـ خـبـابـ يـرـدـ عـلـيـ صـاحـبـهـ فـيـتـلـوـ :

« كـلاـ إـنـ النـاسـ لـيـطـغـيـ أـنـ رـآـهـ اـسـتـغـنـىـ . إـنـ إـلـيـ رـبـكـ الرـجـعـىـ » . ما هـذـاـ القـولـ ؟ إـنـهـ لـيـسـ مـنـ عـنـدـكـ ، أـينـ سـمعـتـهـ ؟ أـوـ مـنـ سـمعـتـهـ ؟ وـهـلـ لـيـ إـلـىـ أـنـ أـسـمـعـ مـثـلـهـ مـنـ سـبـيلـ ؟ قـالـ صـاحـبـهـ : نـعـمـ ! إـنـ شـئـ فـاصـحـبـنـيـ إـلـىـ الـأـمـيـنـ فـإـنـهـ يـتـلـوـ عـلـيـنـاـ هـذـاـ القـولـ الـذـيـ يـتـنـزـلـ عـلـيـهـ مـنـ السـماءـ ،

(١) العلق : الدم .

(٢) تصطـلـكـ : تـضـطـلـ وـتـضـرـبـ إـحـدـاـهـ الـأـخـرـىـ .

ويُقبل أبو جهل ذات صباح على نادى قومه فى المسجد فيقول  
وهو يضحك ملء شدقته<sup>(١)</sup> ويضرب فخذه بيده : يا مبشر قريش ;  
اغدو إن شئتم على منظر عجب . إن ابن الخطان قد صبا :  
ولانا سحرقوه بالنار . قبل أن يتصرف النهار .

## ١١

أقبل مسعود بن غافل مع الحجاج من هذيل . فنزل في مكة  
على عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب ، وكان ينigma صهر ،  
فأقام مسعود عند أصحابه حتى انقضى الموسم . فلما هم بالرجوع  
إلى موطنها من أرض هذيل قال لمضيقه : ألسْتَ ترى أن عهداك  
بأرض هذيل بعيد ، وأن لك عندنا ابنة لها عليك بعض الحق .  
وأن لا ينفك هذه ابنة ليس حقها عليك بأقل من حق أنها ؟ قال  
عبد بن الحارث : صدقت ، إن عهدي بأرض هذيل بعيد ، وإن  
لابنتي هاتين على لحناً عظيمًا ، ولكنك تعلم أن تلك الحرب قد  
أفسدت ما بيننا وبين قيس من الأسباب . ومع أن تلك الحرب  
قد وضعت أوزارها<sup>(٢)</sup> وجعلت أمورنا تستقيم قليلاً قليلاً . فإن قريشاً

---

(١) الشدق : زاوية الفم ، ويضحك ملء شدقته : يضحك ضحكاً قريضاً .

(٢) وضفت الحرب أوزارها : انقضت . وأوزار الحرب أنتالموا .

لانطرق نجداً إلا متحفظة محتاطة . قال مسعود : ماذا تقول ؟  
 إنكم عشر قريش أهل الحرم وجهاً البيت ، يأمن فيكم الخائف ،  
 ويأوي إليكم الضائع ، ويجد الملهوف عندكم معونة وغوثاً ؛  
 فما ينبغي أن تكون الأرض كلها إلا حرماً لكم تؤمنون فيه من خوف  
 ولا تعدو عليكم فيه العاديات <sup>(١)</sup> . قال عبد بن الحارث : قد يكون ذلك  
 كما قلت ، ولكنك رأيت قيساً تغزونا في أرضنا ، لا ترجو ليتنا  
 ولا لحرمنا وقاراً <sup>(٢)</sup> . فمن يؤمن قريشياً أن تغوله من قيس وأحلافه غائلة <sup>(٣)</sup> ؟  
 قال مسعود وقد أحفظه <sup>(٤)</sup> ما سمع : وإنك أنت لتقول ذلك ، ولك  
 في هذيل صهر ، وتقول ذلك وابتاك عندي ! قال عبد : وصلتكم  
 رحم ! فإني لا أخاف شيئاً في أرض هذيل ، ولا يخاف غيري  
 شيئاً في أرض هذيل ، ولكننا لا نبلغ أرضكم حتى نمر بمحى من  
 أحياء قيس أو أحلافها . قال مسعود : ويملأ ! فإن شئت  
 فاجعل بينك وبيني حلفاً يحميك من العاديات في كل أرض تصل  
 إليها يد هذيل ، ويحميني من الغوايل في كل أرض تبلغها يد قريش .  
 قال عبد : قد فعلت .

ولم يعد مسعود إلى أرض هذيل وحده ، وإنما ذهب معه إليها

(١) تعدو عليكم العاديات : تنزل بكم المصائب . وعدا عليه : وثب ، وظلمه .

(٢) لا ترجو هنا : لا تخاف . والوقار : الظاهرة ، أي لا تهاب بيتنا ولا ترمه .

(٣) تغوله : تهلكه وتأخذه من حيث لا يدرى ، والنائلة : الداهية المهلكة .

(٤) أحفظه : أغضبه .

حليفة وذو صهره عبد بن الحارث بن زُهْرَةَ بن كلاب ، فزار  
 عنده ابنته هند ، وقد مات عنها زوجها ابن عبد وُدّ ، وزار بنتها  
 أمَّ عبد ، وقبل طفلها الصغير عبدالله بن مسعود . وأقام ما أقام  
 في أرض هذيل ، ثم انحدر إلى مكة ، فلم يطل فيها مقامه حتى  
 أدركه الموت ، ونشأ الصبي الهذيلي من قبل آبائه ، القرشى من قبل  
 أمه ، في أرض هذيل نشأةً أمثاله من أهل الادية : حياة أدنى إلى  
 الشطف<sup>(١)</sup> منها إلى الدين ، وأقرب إلى العسر منها إلى اليسر . ولا يكاد الصبي  
 يبلغ أول الشباب حتى يفقد أباه ، وحتى تضيق به سبل العيش  
 في أرض نجد ، فيحيط مكة ليأوي إلى أخواله من بنى زُهْرَةَ . ويقيم  
 ماشاء الله أن يقيم عزيزاً بأخواله وبالحلف الذي كان بينهم وبين  
 أبيه . ولم يكن الشباب من أهل مكة يألفون حياة البطالة والترف  
 إلا أن يكونوا من أبناء السادة والأغنياء ، وإنما كان سبيل الفتى  
 من أوساط الناس في قريش وأحلافها إذا بلغ السن التي يستطيع أن يكسب  
 فيها القوت أن يسعى على رزقه كما يستطيع ، لا يرى بذلك يأساً  
 ولا يجد فيه جناحاً<sup>(٢)</sup> . وإنما الأساس كل الأساس والجناح كل الجناح  
 أن يعيش الفتى كلاماً<sup>(٣)</sup> على آبائه أو أخواله .

وقد سعى عبدالله بن مسعود على رزقه ، والتمس القوت من

(١) شطف العيش : ضيقه وشدته .

(٢) الجناح : اليم .

(٣) الكل : العالة على غيره .

مصادره ، فعرض نفسه على كثير من الناس ، وجرّب كثيراً من فنون العمل ؛ ولكن شيئاً واحداً راقه وأعجبه لاءِ طبيعته المادّة ونفسه الراضية وقلبه المطمئن السليم ، فأصبح راعياً لعقبة بن أبي معيط ، يرعى عليه غنيماته في ظاهر مكة ، يغدو بها مع الصبح ويروح بها مع الليل ، وينفق نهاره معها راضياً وادعاً ، قد خلا إلى نفسه ، فأنم غائلاً الناس وأمن الناس غوايله .

ولأنه لن غنياته تلك ذات يوم ، وإذا رجلان يقعن عليه ، وقد ظهر على وجهيهما شيءٌ من خوف أخذ يذهب شيئاً شيئاً ، فيستريح الرجلان ساعةٌ ما أدركهما من الجهد ، وكأنهما قد اضطربا إلى كثيرٍ من العدُو أمام قوم كانوا يهدون في آثارهما . وينظر الفتى إليهما صامتاً لا يقول لهما شيئاً . وما الذي يعنيه من أمرهما ، وهو إنما خلا إلى غنياته تلك ليصرف نفسه عن أمر الناس ويصرف الناس عن أمره ! ولكن أحد الرجلين يسأله فيقول : يا غلام ، هل عندك من لبن تسقيناً فإننا ظماء ؟ قال الغلام : إنّي مؤمن ، ولن أستيقركما . ولو كانت هذه الغنيمات لـ ما بخلت عليكم بما ينفع الغلة ويسهل الصدّى <sup>(١)</sup> . فينظر أحد الرجلين إلى صاحبه نظرة مطمئنة كأنه يقول له : لقد أصاب الغلام وتأثر البر . ثم يحوّل الرجل نظره المطمئن

(١) ينفع : يروى . النلة : العطش الشديد ، وكذلك الصدّى .

إلى الغلام ويقول : فهل عندك من جَذَّعةٍ (١) لم يَنْزُ علَيْها الفحل ؟ قال الغلام : أما هذا فنعم . ثم يمضي غير بعيد ويعود ومعه شاة ؛ فيعتقلها الرجل ذو النظر المطمئن ، ثم يمسح على ضرعها ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله . وينظر الغلام فإذا الضرع قد حفل وإذا الرجل الآخر يأتي صاحبه بصخرة متعرجة ، فيحلف فيها ويسقيه . ثم يسقى الغلام . ثم يشرب هو ، ثم يقول للضرع : ألقنْ (٢) ، فيعود الضرع كمهده قبل أن تُعتقل الشاة .

هناك يُبْهَتُ (٣) الفتى فينعقد لسانه فلا يقول شيئاً ، وإنما يقف وأباً ذاهلاً يردد طرقه الخائر بين الرجلين . ويظل الفتى كذلك ، وقد انصرف عنه ذو النظر المطمئن وصاحبه ومضيا مستأنسين لا ينظران إليه ولا يقولان له شيئاً . ولم يَدْرِ الفتى أطال وقوفه ذلك الخائر أم قصر ، ولم يدر الفتى ماذا صنع ولا فم فكر بقية يومه ، وإنما يرى نفسه حين تصرف الشمس إلى مغربها مجردة أذيمالها تلك الشاحبة التي تتعلق بأعلى الربى وروعوس الجبال ريثما تسحبها الشمس أو يمحوها الليل – يرى نفسه في تلك الساعة رائحاً إلى مكة وبين يديه غنياته يَهْشَ (٤) عليها بعصاه دون أن يفكر فيها أو يخفل بها ، وقد امتلأت نفسه بمخاطر يُحْسِنَه ولا يتبينه . ثم يرى نفسه وقد آوى

(١) الجَذَّعةُ : الصنيرة .

(٢) ألقنْ : ارتقى .

(٣) يَبْهَتُ : يدهش ويسكت متحيراً .

(٤) هش الورق بعصاه : خبطه ليسقط .

الغنائم إلى حظيرتها ، وأقبل يسعى هادئاً مطمئن الخطو ذاهل النفس  
 مع ذلك مُشرد العقل يلتمس عقبة بن أبي مُعيط ، فيراه قد جلس  
 في صحن داره ومن حوله بنوه وبعض ذوي قرابته ، فيسعى الفتى حتى  
 يقف منه غير بعيد ، ثم يقول : أى أبا الوليد ، أغد<sup>(١)</sup> مع غنيماتك  
 غيري من رقيقك وأحلافك ! فإني عن رعيها راغب منذ اليوم .  
 قال عقبة : وَيُحَلَّ يَا فَتَى هذيل ! ماذا أنكرت هذا أو منها ؟  
 قال الفتى : لم أنكر منكم ولا منها شيئاً ، ولكنني رغبت عن رعي  
 الغنم . ثم ولئن لا يسمعنا كان يقال له ، ولا يحفل<sup>(٢)</sup> بما كان يُظن  
 به ، ولم يعد إلى بيته : وإنما عاد إلى ذلك المكان الذي كان يرعى  
 فيه غنيماته ، واستحضر في نفسه ذيئث الرجلين يعروها بعض  
 الروع<sup>(٣)</sup> ويثوب لايحسا المدوء قليلاً قليلاً ، ويستقيانه فإذاً عليهما .  
 واستحضر في نفسه الشاة الجذعية التي لا عهد لضرعها باللبن ، ثم  
 رأى ضرعها يحفل<sup>(٤)</sup> . ورأى اللبن يشخّب منه في تلك الصخرة الجوفاء .  
 ثم استحضر ذوق ذلك اللبن الذي شربه ، فلم يذكر أنه شرب  
 مثله فقط . وحاول أن يذكر ذلك الكلام الذي دعا به الرجل  
 ذو النظر المطمئن وهو يمسح ضرع الشاة فلم يذكر منه شيئاً ؛ فهاله

(١) أى أجعل غيري ينتصرو مع غنيماتك .

(٢) يحفل : يمال ويهتم .

(٣) يعروها : ينزل بها . الروع : الفزع .

(٤) يحفل : يتجمع فيه اللبن بكثرة .

ذلك ، ورباه من نفسه كلها ريب <sup>(١)</sup> ؛ فلم يحرص قط على شيء حرصه على أن يحفظ ذلك الكلام ، وكان عهده بنفسه ألا يسمع شيئاً إلا استقر في قلبه كأنه نقش فيه نقشاً . فيقول الفتى لنفسه : إن لهذا الرجل ذي النظر المطمئن وصاحب وكلامه لشأنه . وقد طال مكث الفتى بهذا المكان ساكنًا ساكنًا يدير طرفه من حوله ، ثم يقلب طرفه في السماء لا يكاد يفكر في شيء ، أو لا يكاد يتحقق شيئاً مما يفكّر فيه ، وإنما يرى في نفسه أول الأمر ، ثم من حوله بعد ذلك ، صورة الرجل المطمئن معتقدًا شاته تلك ماسحة ضرعها متكلماً بذلك الكلام الذي سمعه ولم يعقله ، والذي يحاول أن يذكره فلا يجد إلى ذكره سبيلاً .

وينصرف الفتى عن مكانه ذاك حين تقدم الليل ، ولكنه لا يعود إلى مكة ، وإنما يheim فيها حوله من الأرض مستأنسًا إلى وحشته حريرصًا على وحدته ، لا يحس جهداً ولا تعباً ولا حاجة إلى النوم ، ولا يحس ظمآنًا ولا جوعاً ، وإنما يجد في فمه ذوق اللبن ، ويري في عينيه صورة ذلك الرجل المطمئن الوداع ، ويسمع في أذنيه صوت ذلك الرجل ممتلئاً عذباً يجري بكلامه ذاك الذي لا يذكره كما يجري الينبوع الرقيق الصاف بالعذب الزلال . وأنفق الفتى ليته تلك لم يظله سقف ولم يؤوه مضجع . حتى إذا تجلت شمس التهار

---

(١) رابه : أوقعه في الريب وهو الشك والتبهه وقلق النفس وأضطرابها .

عاد إلى مكة حين يغدو منها الرعيان . ولم يستقر قراره حتى عرف ذلك الرجل المطمئن وصاحبـه ، ومكـانـهـما فيـسـعـيـ حتى يـجـدـ محمدـاـ رسولـ اللهـ . فإذا دـنـاـ منهـ أـلـقـىـ النـبـيـ إـلـيـهـ نـظـرـةـ مـطـمـئـنـةـ ، وـابـتـسـمـ لهـ ، وـالـفـتـيـ يـدـنـوـ مـنـهـ حتـىـ يـبـلـغـهـ ، ثـمـ يـجـلسـ بـيـنـ يـدـيهـ ، ثـمـ يـقـولـ لـهـ فـيـ صـوـتـ رـقـيقـ يـضـطـربـ اـضـطـرـابـاـ خـفـيـاـ : عـلـمـنـيـ مـنـ هـذـاـ الـكـلـامـ الـذـىـ سـمـعـتـهـ مـنـكـ أـمـسـ . قالـ النـبـيـ مـبـتـسـمـاـ لـهـ : إـنـكـ غـلامـ مـعـلـمـ . ومنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ اـسـتـقـرـ فـيـ قـفـيـ أـنـهـ لـمـ يـخـلـقـ لـنـفـسـهـ وـلـأـهـلـهـ وـلـأـلـغـنـيـاتـ عـقـبـةـ بـنـ أـبـيـ مـعـيـطـ ، وـإـنـماـ خـلـقـ لـيـلـزـمـ مـحـمـدـ هـذـاـ الـأـمـيـنـ ، فـيـسـعـ مـنـهـ وـيـحـفـظـ عـنـهـ وـيـدـعـوـ بـدـعـوـتـهـ .

وـكـانـ الـفـتـيـ خـفـيـاـ نـحـيـاـ دـقـيقـ الـجـسـمـ سـرـيعـ الـحـرـكـةـ عـظـيمـ النـشـاطـ .. فـلـمـ يـكـدـ يـلـزـمـ رسولـ اللهـ أـيـامـاـ وـيـسـعـ مـنـهـ وـيـحـفـظـ ماـ قـالـ حتـىـ رـأـتـهـ قـرـيـشـ فـيـ أـنـحـاءـ مـكـةـ مـتـقـلـاـ بـذـكـرـ مـحـمـدـ وـكـلـامـ يـذـيـعـهـ فـيـ كـلـ وـجـهـ ، وـيـسـتـشـيـهـ فـيـ كـلـ مـجـلـسـ ، وـيـتـحدـثـ بـهـ فـيـ كـلـ مـكـانـ . وـكـانـ لـخـفـتـهـ وـسـرـعـتـهـ مـصـدـرـ عـنـاءـ لـقـرـيـشـ ، تـرـاهـ فـيـ هـذـاـ الـمـكـانـ فـلـاـ تـكـادـ تـهـمـ بـهـ حتـىـ تـنـظـرـ فإذاـ هوـ قدـ استـخـنـ وـانـتـقلـ إـلـىـ مـكـانـ آـخـرـ ، لاـ يـدـرـونـ كـيـفـ اـنـقـلـ إـلـيـهـ . فـكـانـ الـمـتـبـعـونـ للـنـبـيـ وـأـصـحـابـهـ يـرـونـ هـذـاـ الـفـتـيـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـلـاـ يـكـادـونـ يـظـفـرـونـ بـهـ مـعـ ذـلـكـ فـيـ أـيـ مـكـانـ ! حتـىـ قـالـ أـبـوـ جـهـلـ ذـاتـ يـوـمـ : ماـ ضـقـتـ بـأـحـدـ مـنـ أـصـحـابـ مـحـمـدـ كـمـ أـضـيـقـ بـهـذـاـ الـفـتـيـ الـهـذـلـيـ ،

أراه في كل وجه مذيعاً دعوة محمد مفسداً بها قلوب الناس ،  
ولا أجد لي عليه سبيلاً . ولو قد ظفرت بهما أبقيت عليه<sup>(١)</sup> . قال عتبة  
ابن أبي ربيعة : مهلاً أبا الحكم ، لا تطش بهذا الفتى الهندي ،  
فإن زهرة لن تسلمه ، وإنك إن تنهي بسوء تولب هزيلاً كلها<sup>(٢)</sup> على  
قريش وتقطع عليها طريقاً لا تحرص على شيء كما تحرص على  
أمنه وسلمه . قال أبو جهل : هو ذلك ، ولكن أقسم مع ذلك  
لأنه يذكره هذا الفتى بعض ما يذكره إن قدرت عليه . ولم يقدر عليه  
أبو جهل إلا بأخره حين أذن النبي ل أصحابه في المجزرة إلى أرض الحبشة .  
مر أبو جهل ذات يوم غير بعيد من المسجد ، فرأى رهطاً  
من الناس قد تحلقوا<sup>(٣)</sup> حول رجل ضئيل النحيل ، وخيل إليه من بعيد  
أنه يقول لهم وأنهم يسمعون له ، فاستأني<sup>(٤)</sup> أبو جهل في مشيته ، وضاعل  
من شخصه ، وتسع بالجلدان ، ومضى كذلك مستخفياً أو  
كالمستخفى ، حتى فجأ القوم ، فوقف منهم غير بعيد ، يراهم  
ولا يرونها ، وتسمع لصوت ذلك الرجل الضئيل النحيل ، فإذا صوت  
عذب ، يتلو كلاماً عذباً ، فيصغى أبو جهل بنفسه كلها لسماع  
ما يجرى به هذا الصوت العذب من هذا الكلام العذب ، وإذا ابن

(١) أبقيت عليه : تركته حياً .

(٢) تولب هزيلاً : تغير عاديتها .

(٣) تحلقوا : تجمعوا في حلقة .

(٤) استأني : تمهل .

مسعود يتلو على من حوله هذه الآيات الروائع من سورة الفرقان :

« وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنَا وَإِذَا خَاتَطُوهُمْ ابْحَاهُلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبْيَسُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَدًا وَقَيْمًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبِّنَا أَصْرَفْنَا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مَسْتَقْرِرًا وَمَقْاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا أَخْرَى وَلَا يَقْتَلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَيْهَا الْحَقَّ وَلَا يَزِنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يَضَاعِفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَسْخَلُهُ فِيهِ مَهَانَاً . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدَّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهُدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُوا بِاللُّغُو مَرَّوْا كَرَاماً . . . » .

وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه، واو قد أرسل طبعه على سجنته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط ، يقول لعبد الله بن مسعود في صوت تعجبه فيه الزفرات : إني والله لأُحب أن أكون من هؤلاء . ولكن أبا جهل لا يرسل طبعه على سجنته . وإنما يدعوه حسدة وكبرياءه وأنفته . ثم ينصب على أولئك الرهط كما ينصب الصقر على فريسته وهو يصبح : بؤساً لكم من رهط سوء ! ما رأيت كاليلوم جراءة . إنكم لتعتمون

حول هذا الرجل وستسمعون له ، وليس أندية قريش منكم بعيد . فما يمنعكم أن تقتتحموا علينا المسجد وأن تتحلقوا فيه ! ولم يكدر أولئك الرهط يرون ذلك الشخص البشع ، ويسمعون ذلك الصوت المنكر حتى تفرقوا سرعاً . وظل ابن مسعود قائماً مكانه لا يبرم<sup>(١)</sup> . فيدنو منه أبو جهل مغضباً وهو يقول : وبلك يا ابن أم عبد ! ما تزال تفسد علينا أحلافنا ورقينا ، وما أراك متنهياً حتى تصيبك مني بائفة<sup>(٢)</sup> . وهم ابن مسعود أن يرد عليه مقالته ، ولكن أبي جهل لا يمهله ، وإنما يعلوه بالقوس فيشجه . وقد أخذ الدم يتحدر على وجهه ، ولكنه لم يحصل بذلك ، وإنما يسرع في خففة إلى أبي جهل وهو يقول : فأما إذا فعلت ما فعلت فخذها وأنا في هذيل ! ثم يدفع في صدر أبي جهل بأخذى يديه ويلطم وجهه بيده الأخرى ، ثم ينصرف عنه مستأنياً متمهلاً ، ويتركه قائماً وإجأ قد أخذنه الذهول ، لم يكن يقدر أن حليفاً من أحلاف قريش يستطيع أن يدفع في صدره ويلطم حر وجهه . ثم ثوب إلى أبي جهل نفسه فيصيح باين مسعود : لن تُفلت بها يا راعي الغنم . قال ابن مسعود : ولن تُفلت بما فعلت يا عدو الله .

ويمضي كلام الرجلين إلى أصحابه . فأما ابن مسعود فيلقي رهطاً من أصحاب النبي ، فيقول لهم وعلى ثغره ابتسامة وفي عينيه دمعتان

(١) لا يرم : لا يبرح ولا ينتقل .

(٢) البائفة : الملوك والشر .

أقبل سلام بن حبیر القرطی من الشام . كمهده في كل عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض وضرور من المتابع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة ، وبعضه مما تحمله الرزوم إلى دمشق ويعصرى وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قيسر ولا يبلغها سلطانه في نجد والهجاز وفي تهامة واليمن . ولم يكُن سلام بن حبیر تترقرقان : لا مُقامَ لِي بمکة منذ اليوم ؛ فقد لطمته وجه أبي جهل . والله إني بالمحنة لفرح ، وإنني بها لخزون : فيها ثواب الله ومغفرته ، وفيها فراق رسول الله دهرًا لا أدرى أيقصر أم يطول . وأما أبو جهل فيعود إلى نادى قومه وقد انكسرت نفسه واستخدن ضميره ، ولكنه على ذلك يُظهر الغضب والكربلاء ويقول لأهل ناديه : ويحكم يا بني خزون ! إن كانت لكم بقية من عزة فأمكذوني من ابن أم عبد ؛ فإنه قد أتى إلى ذنبًا لا يغسله إلا دمه . ويلتمس القوم عبد الله بن مسعود في مكة وما حولها فلا يظفرون به ولا يقدرون عليه ولا يرى أبو جهل تخصّصه إلا يوم بدر .

يستقر في بني قرينة ويربع نفسه من سفر شاق طويلاً ، حتى  
 عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يرب من الأوس  
 والخزرج ، وأقبل عليه من حول يرب من يهود ينتظرون ويشربون .  
 ولم تمض أيام حتى كان سلام بن حبیر قد باع تجارتة وأفاد منها  
 مالاً كثيراً . ولو لا هذا الصبي الذي عرضه سلام على العرب فرغبوا  
 عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيَت نفس سلام كل الرضا ،  
 ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتنماً م gio لـا في أحياه يرب مرسلـا  
 رقيقه وأحلافه فيها حول يرب من أحياه العرب واليهود وفي أعمقـاـ  
 الـادـيـة ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصلـاـ  
 الرحلة إلى الشام . ولكن هذا الصبي كان غصـة (١) في حلقة وحسرة  
 في قلبه ، قد اشترأه في بصرى من بعض الكلبيين بشمن بخس زهيد ،  
 وقدر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يرب فيربع في ثنه ذاك  
 الذي أداء مثيله أو أمثاله .. ولكن أهل يرب من العرب واليهود لم  
 يعهدوا سلاماً جالباً للرقيق أو متجرراً فيه . فلما رأوه يعرض عليهمـاـ  
 هذا الصبي ويلمح في عرضه ويرغب في شرائه أنكروا منه ذلك وظنواـاـ  
 به الظنون . وقال قائلهم : إنما اشتري سلام هذا الغلام لنفسه ،  
 فلا تأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهده فيه ،  
 فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب . وكان الصبي بادى السقم ظاهرـاـ

(١) الغصة : ما يتعرض حلق الشارب . والمراد غالباً وحالات دون غبته .

الضر ، كأنه قد لقى من الذين اتّجروا فيه ثراً وُنكرًا . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصّح عن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلّمه سيده أو غير سيده من الناس التوى لسانه بالفاظ فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سلام يزعم للناس أن هذا الصبي ذكي الفؤاد<sup>(١)</sup> صناع<sup>\*</sup> اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووهد من الطعام ما يقيم أوده . وكان يزعم لهم أنه سليل أمّة فارسية شريفة أقبلت من إصطحرا حتى استقرت في الأبلة ، فملكت أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصرفها في أطراف العراق . فإذا سئل من أبناء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحِرْ جواباً<sup>(٢)</sup> ، وإنما يقول : زعم لي من باعنى هذا الصبي أن العرب اختطفوه حين أغروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بني كلب ، وتعرّض به بنو كلب في بصري يربدون أن يبيعوه البعض تجار العرب أو اليهود . وقد رأيته فرق له قلبى ومالت إليه نفسي ، وقدرت أن سيكون له شأن أى شأن ، فاشتريته فيها اشتريت من المتاع والعروض . هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تمسكه عليك<sup>(٣)</sup> إذن ؟ فيقول : إن ما أنفقت من المال فيه أحب إلى وآثر عندي منه .

(١) صناع : ماهر حاذق في عمله .

(٢) لم يرد جواباً .

(٣) تمسكه عليك : تحفظ به لنفسك .

وماذا أصنع بصبى لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لى أهل أكله إلَيْهم ؟ والصبى مع ذلك ذكى القلب صناع اليد موفور النشاط إن صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوله . انظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء . إنه سريع الحس يختطف ما يرى دون أن يُبَثِّته<sup>(١)</sup> . وانظروا إليهما كيف تتقدان كأنهما تَجَدُّوتان . ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون ويتصرفون ويتركون سلاماً وف قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمر ثبيتة بنت يَعَار الأوسيبة بسلام ذاتَ ضَحْى وهو يعرض صبيه هذا في بعض أسواق يُثْرُب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبى حتى ترجمه ، ثم لا تكاد تُطيل النظر إليه حتى تقع في قلبه الرغبة في شرائه . قالت ثبيتة : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبيب ؟ قال سلام : زعم من باعه لي من بنى كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا أدري ؛ ولكنني اشتريته من كلبي يسمى مَعْقلاً ، وزعم لي أن أسرته أسرة شريفة أقبلت . . . قالت ثبيتة : أقبلت من إصطخر فنزلت الأبلة وزارت النبي وصرفت تجارتها في أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ؛ فإني له مشترية ، فبكم تبيعه مني ؟ قال سلام وقد ابتسם قلبه ورضيت نفسه ، ولكنني استبقي في وجهه الجلد والحزم : فإني لا أريد إلا ما أديت من ثمن

(١) دون أن يُبَثِّته : دون أن يعرفه حق المعرفة .

وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربع اليهودي فأحسن الربع ، وربحت هي بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوم بالدرهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما أثerta بشرائها الخير والبر والمعروف ، لم تُرِدْ إلى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : بعدها هذه الحياة التي لا يرحم الإنسان فيها الإنسان<sup>(١)</sup> ، ولا يرأف القوى فيها بالضعف ، ولا ترقّ فيها القلوب للألم حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة يأوي إليها؛ وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لي صبياً مثله فعدا عليه العادون ومضوا به في غير مذهب من الأرض<sup>(٢)</sup> كيف كنت أتني ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت أسلو عن صبي آخر الدهر ! هيهات ! لو كان لي صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الأرض للذكره مصباحة ومجسية ، ولذكرته يقطن وناة ، ولتبعته نفسى وذهبت في تصوّر حاله المذاهب ، ولا اطمأننت للعيش ولا نعمت بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهي تشهد انتزاعه ، أو اختطف ابنها وهي لا ترى اختطافه ، وكانت

(١) بعدها له : دعاء عليه ، أى أبىده الله .

(٢) عدا : وثب . مذهب : طريق .

ترَى تَوَلَّه<sup>(١)</sup> تلك الأُمْ وتفجعها وحسرتها التي لا تحمد ولو عنها  
 التي لا تنطوي ودموعها التي لا تغيب . وكانت تقول لنفسها في نفسها  
 وهي عائدة بالصبي إلى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك  
 كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يرددوا عنه  
 العاديات ، فكيف بنا نحن في يثرب ، هذه المدينة الخائفة التي  
 يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتي يسل بعض  
 أهلها السيف على بعض ، والتي لا يأمن أهلها أن تدور عليهم  
 دائرة ، أو تنبههم نائية ، أو يلم بهم خطب من الخطوب ؟ فلما  
 بلغت الدار واستقرت فيها ، وعنيت<sup>\*</sup> بالصبي حتى أمن بعد خوف  
 وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها في نفسها : هبات  
 أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لي من الولد من يصيبه مثل ما أصاب  
 هذا الصبي ، ومن أذوق فيه من الحزن والشكل مثل ما ذاقت في  
 هذا الصبي أمه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير . ولو استجابت  
 الحياة لشيء لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي ، ولا تأخذته  
 لنفسها ولدأ أو شيئاً يشبه الولد . ولكن الناس يقدرون ويبدرون :  
 والأيام تجري على غير ما قدرروا ودبروا .

فقد عنيت<sup>\*</sup> ثيبة بسلم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح  
 غلاماً ذكي القلب سريع المحس حديد اللسان كما قدر اليهودي ،

---

(١) التوله : الحزن الشديد .

أو أكثر مما قدر . وكانت ثبيتة له حبة وبه مقتبطة وعنه راضية . وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف الباذية حول بئرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت على أهلها في ذلك حتى أعيتهم . ولكن وفـد قريش يمرـون بـبئرب منـصرـفـهم من الشـام ذاتـ عام ، فـيمـكـثـونـ فيهاـ أيامـاً . ويـسـمـعـ أبوـ حـذـيفـةـ هـشـيمـ بنـ عـتبـةـ بنـ رـيـبـةـ بـحـدـيـثـ ثـبـيـتـةـ هـذـهـ وـقـصـةـ غـلامـهـ ذـاكـ ، فـيـعـجـبـهـ ماـ يـسـمـعـ ، ثـمـ يـجـبـ أنـ يـتـرـيـدـ منـ أـخـبـارـهـ فـيـلـمـ بـقـومـهـ وـيـقـولـ لـهـ وـيـسـمـعـ مـنـهـ ، فـتـنـعـ ثـبـيـتـةـ منـ نـفـسـهـ مـوـقـعاـ حـسـناـ ، معـ أـنـ لـمـ يـرـهـ وـلـمـ يـسـمـعـ لـهـ ، وـلـأـنـاـ سـمـعـ عـنـهـ فـرـضـيـ . وـإـذـاـ هوـ يـنـطـبـ هـذـهـ الـفـتـاةـ الـأـبـيـةـ ، فـمـتـنـعـ عـلـيـهـ أـوـلـ الـأـمـرـ ، حـتـىـ إـذـاـ عـلـمـ بـمـكـانـهـ مـنـ قـرـيـشـ وـبـأـنـهـ مـنـ أـشـرـافـهـ وـذـوـيـ الـمـنـزـلـةـ الـرـفـيـعـةـ فـيـهـ ، وـبـأـنـهـ مـنـ أـصـحـابـ الـبـيـتـ وـأـهـلـ الـحـرـمـ الـذـيـ رـدـ عـنـهـ أـصـحـابـ الـفـيـلـ ، وـالـذـيـ لـاـ يـعـدـ عـلـيـهـ إـلاـ الـفـجـرـةـ الـآـمـنـونـ ، شـكـتـ يـوـمـاـ وـيـوـمـاـ ، ثـمـ أـصـبـحـ مـسـتـجـبـةـ لـخـطـبـةـ هـذـاـ الـمـكـىـ . وـيـعـودـ أـبـوـ حـذـيفـهـ بـأـهـلـهـ وـبـسـلـمـ إـلـىـ مـكـةـ فـيـ وـفـدـ قـرـيـشـ ؛ فـلـاـ يـكـادـ يـسـتـقـرـ فـيـهـ حـتـىـ يـنـكـرـ مـنـ أـمـرـهـ بـعـضـ الشـيـءـ . لـقـدـ أـصـبـحـ فـغـداـ عـلـىـ أـنـدـيـةـ قـرـيـشـ ، ثـمـ أـمـسـىـ فـرـاجـ إـلـىـ أـنـدـيـةـ قـرـيـشـ ، وـلـكـنـهـ يـعـرـفـ مـنـ أـمـرـ هـذـهـ الـأـنـدـيـةـ كـثـيرـاـ ، وـيـنـكـرـ مـنـ أـمـرـهـ كـثـيرـاـ . تـرـيـدـ نـفـسـهـ أـنـ تـنـطـمـنـ وـأـنـ تـأـمـنـ وـأـنـ تـرـضـيـ ، كـمـ تـعـوـدـ مـنـ قـبـلـ ، وـلـكـنـهـ لـاـ تـجـدـ إـلـىـ الـطـمـائـنـيـةـ لـاـ إـلـىـ الـأـمـنـ وـلـاـ إـلـىـ الرـضـاـ سـبـيلـاـ . يـحـسـ أـبـوـ حـذـيفـةـ كـأـنـ شـيـئـاـ يـنـقـصـ هـذـهـ الـأـنـدـيـةـ ، وـكـأـنـ حـدـثـاـ قدـ تـحـدـثـ

في مكة لا يدرى أيسير هو أم خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فتغير من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يتحققه . ثم يتلمس بعض صديقه في اندية قريش فلا يجدهم . يسأل : أين عثمان بن عفان الأموي؟ وأين طلحة بن عبد الله التميمي؟ وأين فلان وفلان من ذوى مودته؟ فلا يجيئه قومه بالتصريح ، وإنما **يُؤثر** بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوى بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصّح ولا تُتبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضج له وجه الحزم من أمره . إن صديقه أولئك بعكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، قاله يسأل عنهم ولا **يُلم** بهم ؛ ولا يكاد هذا انخاطر يخطر له حتى يقصد قصداً فلان أو فلان من أولئك الصديق.

وقد **ألم** بعثمان بن عفان وكان له خليلاً على ما كان بينهما من تفاوت في السن . كان عثمان قد تخطى الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعد ، ولكن الود كان بينهما قد ياماً متيناً ، رادته الصحية في الإسفاق قوة وأيداً . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقاء صديقه بما تعود أن يتلقاء به من البشر والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبو حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام . قال أبو حذيفة : لقد التستك<sup>(١)</sup>

---

(١) التستك : طلبتك وبعثت عنك .

أبا عمرو في أندية قريش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجده ، فما  
عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشط هذه  
الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل انكرت  
من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يجيب . فأعاد عليه  
أبو حذيفة مقالته ، فامعن عثمان في الصمت . قال أبو حذيفة : إن  
لك أبا عمرو لشأننا ولا واللات والعزى . ولكن عثمان لم يقدر يسمع  
قسمه هذا حتى لوى وجهه<sup>(١)</sup> . وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه  
قد اربد وظهر فيه غضب لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة :  
ويمك أبا عمرو ! إنك لتعرف ما بينك وبيني من الود ، وإنك  
ليخليل وفي أمين ، فأظهرني على ذات نفسك . قال عثمان في صوت  
وادع لين : فإن شئت أن تستبيقي ما بيننا من الود فلا تذكر اللات  
والعزى وهذه الآلة التي لا تنفع عنكم شيئاً . هنالك وهم<sup>(٢)</sup> أبو حذيفة  
وجهة قصيرة ، ثم قال : ويمك أبا عمرو ! فإنك إذن قد صبئوت ؟  
قال عثمان في صوت أشد دعة وأعظم لينا : لم أصبوأ أبا حذيفة ،  
ولإنما اهتديت : إنك فت حازم رشيد لم تقدم بك السن بعد ،  
ولكن رأيت الدنيا وطوقت في أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس  
وجربت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك  
ومثلي لأنصاب<sup>(٣)</sup> من خشب وصفر صورها الناس بأيديهم ، ويستطيع

(١) لوى وجهه : أماله وأعرض . (٢) وهم : سكت وعجز عن التكلم .

(٣) الأنصاب : جمع نصب ، وهو ما عبد من دون الله من الأصنام .

من شاء منهم أن يجعلها جُذاداً<sup>(١)</sup> ؟ قال أبو حذيفة: ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكنني لم أفكِر في هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنائعهم . قال عثمان : وإذا أسفَرْ المُهْدِي وحصصَ الحق<sup>(٢)</sup> ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدى ونَتَبَعَ الحق ، متى تستصحبِنَ إلى محمد ؟ قال عثمان : الآن إن شئت .

وأمسى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل بسلامه على ثُبَّيْتَةَ ؛ فلم تكُنْ تسمع له حتى آمنت بِمُحَمَّدٍ وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فالتَّ إلَيْهِ نفْسَهُ ، وإذا هو يقول كَمَا آمَنَا . ولم يتقَدَّمْ الليل حتى زادت بيوت الإسلام في مكة بيتاً .

ونَفَضَ أَيَامَ قَلِيلَةَ وَإِذَا ثُبَّيْتَةَ تَلَمَّ أَنْ مُحَمَّداً يَدْعُونَ إِلَى إِعْتَاقِ الرِّيقِ ، وَيَعْدُ الَّذِينَ يَفْكُّونَ الرِّقَابَ مُغَافِرَةً مِنَ اللهِ وَرَحْمَةً وَرَضْوَانًا . فَتَدْعُونَ إِلَيْهَا غَلَامَهَا ذَاكَ الْفَارَسِيَ وَتَقُولُ لَهُ : اذْهَبْ سَالِمْ فَلَمَّا قَدْ سَبَبْتُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَوَالَّمْ مِنْ شَتَّ . قال سالم لأبي حذيفة : فَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَكُونَ لِي ولِيًّا ؟ قال أبو حذيفة : هَيَّات ! لَنْ أَتَخْلُكَ مَوْلِي ، وإنما أَنْتَ ابْنَ لِي مِنْذَ الْيَوْمِ .

(١) جُذاداً : قَلِيلًا .

(٢) أَسْفَرَ : أَسْهَدَ . حَصَصَ : بَانَ وَظَاهَرَ .

دخل عبد الله بن سهيل بن عمرو على أخته سهلة بنت سهيل زائراً عند زوجها أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، فرأى منها إقبالاً عليه أكثر مما تعود أن يرى منها منذ حين ، ووقع ذلك من نفسه موقعاً حسناً ، فجعل يحدث أخته بما شاء من أحاديث قوله يريد أن يسرها ويفكها : يبعث بالشيخوخة وذوى الأسنان من قريش طوراً ، ويتندر بمرح الشباب من قريش طوراً آخر ، وأخته تسمع له فتضحك وتتعجب ، وتهتم أن تشاركه في بعض حديثه وأن تذكر معه أيام الصبا ، ولكنها لا تلبث أن تكتف نفسها عن ذلك وأن تُؤثر الصمت ، وتدعوه إلى أن يقول . وقد لاحظ عبد الله أن أخته على نشاطها له وإقبالها عليه ربما عرض لها شيء من ذهول بين حين وحين ، كأنما كانت تغيب عنه ثم تُنوب إليه .

وقد أنكر الفتى من أخته نشاطها وذهولها جيئاً ، ولكنه أسر ذلك في نفسه ولم يُبَدِّلْه لها ، ومضى فيما كان يسوق من حديث ضاحكاً مضحكاً ، حتى إذا أفق معها ساعة غير قصيرة هم

أن ينصرف . وقامت أخته ت يريد أن تسعى معه مشيعة إلى بناء الدار . ولكن عبد الله ينحني على أخته ، ي يريد أن يضمها إليه ، وأن يُقبلها ، فَتَدْعُرْ سهلة وتتراجع شيئاً . وينظر إليها عبد الله في شيء من حيرة ودهش . وتنظر هي إلى عبد الله في دهش وحيرة . ثم يعود عبد الله إلى مكانه في مجلس ، وتظل سهلة قائمة واجهة كأنها لا تدري ماذا تصنع ولا تعرف كيف تقول . قال عبد الله بعد هنفية : إن أمرك لعجب منذ اليوم يا سهلة ، أليس قد أزعمن المهرة من غد ؟ قالت سهلة وقد ظهر عليها الروع : أي هجرة ؟ هنا لك أغرق عبد الله في الضحك ، ثم قال : ما رأيت كالبيوم فناة غرة<sup>(١)</sup> ت يريد أن تذكر بأخيها . إن هجرة أصحاب محمد إلى أرض الحبشة ليست سرّاً مكتوماً . وإنما هو حديث الناس في مجالسهم وحديث الملا<sup>(٢)</sup> من قريش في أندیتهم ، وإن قريشاً لو شاعت لأنخذت على أصحاب محمد طرق هجرتهم<sup>(٣)</sup> . ولكنها لاتشاء ، ولعلها لا تكره هذه المهرة . فقد جعلت قريش سأام محمد وأصحابه ، وتسأم الكيد لهم والمكر بهم والإلحاد على المستضعفين منهم بالفتنة والعقاب . وقد فرحت قريش بهجرتهم هذه ، وقال الملا منها شر يُصرف عننا وراحة تهدى إلينا . وإن أعين قريش ليقطة ساحرة على محمد

(١) الفر : من لا خبرة له .

(٢) الملا : السادة الأشراف .

(٣) أخذ عليه الطريق : تعرض له ومنه .

ونفر من أصحابه ؛ فهؤلاء رهائن قريش لا تخلى بينهم وبين الطريق إن أرادوا أن يدفعوا أنفسهم إلى الطريق . فاما المستضعفون وأشباه المستضعفين فليس لقريش فيهم أربٌ .

وكانت سهلة تسمع لهذا الحديث وأيات الروع والحزن والرضا تختلف على وجهها ، وهي مع ذلك قائمة تستمع من أخيها ولا ترد عليه جواباً . قال عبد الله : وقد ظنتت إذن وطن زوجك أن قريشاً عنكما غافلة . هياهات ! إن عتبةَ والوليد بن عتبة ليعلمان من أمر أبي حذيفة مثل ما يعلم سهيل وعبد الله من أمر سهلة ؛ وإن قريشاً لتعلم من أمر كما مثل ما يعلم أبواكما ، ولكن قريشاً لا تجسسكما لأن لها في أبويكما وأنهويكما أرباً . ولكننا نحن لا نجسسكما أيضاً ؛ لأننا نُثْرِكَا بالحب في أعماق نفوسنا ودخائل قلوبنا ، ونكره لكما حياة التستر والاستخفاء هذه التي تحتملانها في مشقة أى مشقة وعناء أى عناء ، ولا نضيق بأن تجدا فيه هجرتكما هذه أمناً بعد خوف وفريجاً بعد سرج . ولو لا أن تقول قريش : ضَعْفَ سهيل فلم يُطِقْ على فراق ابنته صبراً لما زرتكم الآن وحدى ولزارك أبوك فنظر إليك قبل فراق ليس يدرى ولست تدررين أبطول أم يقصر ، ولكنه يرى كما أنك ترين أوله ، ولا يعرف كما أنك لا تعرفي آخره . وليس يعني ما تقول قريش في ، وعسى أن أجده في مقت قريش لي رضا سوف استخفافها بي حبوراً . أسمعت الآن عنى ؟ قالت سهلة : ألم تر: أنتَ منذ دخلت على إِنما تحدث وحدك وأنا أسمع ولا أرد عليك ؟ قال

عبد الله : بلى ! وهذا بعض ما أثار في نفسي ما ترين من العجب .  
 ولكنني لم أفهم هذا النذر الذي اشتمل عليك حين أردت أن أضمك  
 وأن أقبلك **مُوَدَّعًا** . قالت سهلة ولم تستطع أن تمنع ابتسامة حلوة  
 ارتسمت على ثغرها وضحكه عذبة جرت في صورتها : فإنك **مُشرك** ،  
 وما أحب مس المشركين . قال عبد الله وقد ظهر في وجهه الحزم :  
 أوقدتْ بلغ بكم حب محمد والاستجابة لدينه أن تصدوا عن  
 إخوانكم ؟ قالت سهلة وقد زالت ابتسامتها عن ثغرها وجرى في صورتها  
 حزم صارم لم يثبت له قلب الفتى وإنما اتصل له **حَفْقَانِه** : لو  
 قد أحببتَ محمداً واستجابتَ لدينه لعرفتَ أن الصد عن الإخوان  
 والآباء في سبيله ليس شيئاً . **تعلَّم**<sup>(١)</sup> يا أخي أنا نحب الله ورسوله  
 وأكثر ما نحب آباءنا وأمهاتنا وإخواننا ، وأكثر ما نحب الدنيا كلها  
 وما فيها من كل شيء ، وأكثر ما نحب أنفسنا . ولقد حدثني آنفأ  
 بأن قريشاً راضية عن هجرتنا ، **تعلَّم** أنا نحن عنها غير راضين .  
 ولولا أن أذن لنا فيها محمد ودعانا إليها لأننا الفتنة والعناد والموت  
 قريباً منه على الدعة والسعنة والراحة والروح والأمن والرضا بعيداً  
 عنه في أي قطر من قطرات الأرض . قال عبد الله وقد أطرق  
 مفكراً : هو ذاك إذن ! محمد أحب إليكم من آباءكم وأمهاتكم  
 وإخوانكم ومن الدنيا كلها وبما فيها من كل شيء ! محمد أحب إليكم

(١) **تعلم** : أعلم .

من أنفسكم ؛ قالت سهلة : ولو قد أحببتَ محمداً كما نحبه لعرف  
 قلبك الحب الذي يعطي ولا يريد أن يأخذ ، والذى لا يبتغي لنفسه  
 شيئاً من لذة الجسم أو نعيم النفس . ويدخل أبو حذيفةَ فيرى  
 عبد الله مطولاً مغرقاً في التفكير ، ويرى امرأته سهلة قائمة تنظر إليه  
 نظارات حازمة قوية ، ولكن فيها شيئاً من أمل وشيناً من حنان . فينظر  
 أبو حذيفة إلى امرأته ثم ينظر إلى عبد الله ثم يقول في صوت عريق :  
 هل تنبئيني يا سهلة بأن الله قد أنزل السكينة على قلب أخيك ؟  
 وقت سهلة أن تجيب ، ولكن عبد الله يرفع رأسه ويسبق أخته  
 إلى الحديث فيقول : السكينة ! السكينة ! ... ما عسى أن تكون  
 هذه السكينة ؟ إن لكم لأنفاظاً تديرونها في أفواهكم وتقرونون بها  
 آذاناً ، ولكننا لا نحصل لها معنى . هذه تزعم أنكم تجبون محمداً  
 أكثر مما تجبون آباءكم وإنواعكم وأنفسكم ، وأنت تسألاً هل أنزل  
 الله على قلبي السكينة . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؛ وما عسى  
 أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آباءكم  
 وإنواعكم وأنفسكم ؟ قال أبو حذيفة في صوت رفيق : لم يصنع  
 محمد بقلوبنا إلا أنه نقاها من الغي ، وجلالها من الضلال ، واستنزل  
 عليها السكينة التي ملأتها أمّنا رضا وثقة وأملاً وحالت بينها وبين  
 الخوف والشك والقنوط . ثم يتلو قول الله عز وجل : « إن الذين  
 لا يرجون لقاءنا ورخصوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين  
 هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » .

وَلَا يَكادُ الْفَتِي يَسْمَعُ هَاتِينَ الْآيَتَيْنِ حَتَّىٰ تَأْخُذَهُ رِعْدَةٌ عَنِيفَةٌ  
وَيَتَفَصَّدُ<sup>(۱)</sup> جَبِينَهُ عَرْقًا . وَيَعْضُى أَبُو حَذِيفَةَ فِي تَلَاقِهِ فِي قِرَأَةٍ : « إِنَّ  
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهُدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ  
أَنْهَارِهِمْ أَنْهَارٌ فِي جَنَّاتِ النَّعْمَ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ  
اللَّهُمَّ وَتَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ » .

وَلَا يَلْبِغُ أَبُو حَذِيفَةَ آخِرَ هَذِهِ الْآيَاتِ حَتَّىٰ يَهُدُ رَزْوَعَ الْفَتِي  
وَيَشْبُرْ إِلَى قَلْبِهِ الْأَمْنَ ، وَيَنْظَرْ إِلَى أَبِي حَذِيفَةَ مُبْتَسِمًا ، وَيَقُولُ  
فِي صَوْتٍ تَشْيِعَ فِيهِ دُعَابَةً حَلْوَةً : « وَيَحْكُمُ ! إِنِّي أَحَسْ كَانَ  
سَكِينَتُكُمْ هَذِهِ تَسْعِ إِلَى قَلْبِي . أَذَاهَبْ أَنْتَ بِي أَبَا حَذِيفَةَ إِلَى  
مُحَمَّدٍ لِأَتَلْقَاهَا مِنْهُ ؟ »

وَأَمْسَى عَبْدُ اللَّهِ مُسْلِمًا قَدْ عَادَ إِلَى أَخْتِهِ وَجَلَسَ إِلَيْهَا وَإِلَى  
أَبِي حَذِيفَةَ وَسَلَمَ يَسْمَعُ مِنْهُمَا الْقُرْآنَ . تَقُولُ لَهُ سَهْلَةُ مُنْصَرَفَةُ عَنْهَا  
حِينَ تَقْدُمُ الْلَّيلَ : « أَمْهَاجِرْ أَنْتَ مَعْنَا يَا أَخِي ؟ » قَالَ عَبْدُ اللَّهِ :  
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ تَنْأَى بِكُمُ الدَّارَ ، وَلَكُنِّي لَمْ أُسْمِعْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ الْقُرْآنَ  
وَحْدَيْهِ إِلَّا الْيَوْمَ ، وَلَفِي لَأَوْثَرِ أَنَّ أَزْمَهُ مَا وَسَعَى لِزَوْهِهِ ، فَاذْهَبُوا  
رَاشِدِينَ .

وَأَصْبَحَ أَبُو حَذِيفَةَ فَانْطَلَقَ بِامْرَأَتِهِ وَابْنِهِ سَلَمَ فَيَمْنَ اِنْطَلَقَ

(۱) يَتَفَصَّدُ : يَسْلِلُ .

إلى أرض الحبشة من المسلمين . حتى إذا كانت الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة كان عبد الله بن سهيل أحد المشاركين فيها . وقد جلس سهيل في داره مخزوناً كثيراً ، وافتقدته قريش حين رأت تخلفه عن أنديتها أياماً ، فأقبل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل عمرو بن هشام فاستأذنوا عليه . ولو قد أطاع نفسه لمنعهم الإذن ، ولكن للسادة من قريش حقوقاً لا يلتوي بها . فيدخل القوم على سهيل ، ولا يكادون يتحدثون إليه حتى يروا حزنه وضيق صدره . يقول عتبة بن ربيعة : **وَيَحْكُمُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ** ! لقد هاجر أبني فما ساعتني هجرته ، فيقول سهيل : **وَهَلْ جَرَّ عَلَيْنَا الشَّرُّ كَلَهُ إِلَّا ابْنَكَ** ! لم يكتبه أن يصبئ ابنى حتى أصباً أخاها وانصرف بهما جميعاً إلى أرض النجاشي . قال أبو جهل : لو عرفت قريش كيف تؤدب سفهاءها لما أصابكما ما تريان ، ولو استجابت لي قريش لاجتثت الشجرة من أصلها<sup>(١)</sup> . فيقول شيبة بن ربيعة : **عَلَى رَسُولِكَ**<sup>(٢)</sup> **أَبَا الْحَكْمِ** ! أما هذه فلم يأت إبانها<sup>(٣)</sup> بعد .

وما زال القوم بسهيل حتى يخرجوه ويردوه إلى ما ألف منهم وألفوا منه . ويمضي من الأيام والأشهر ما شاء الله أن يمضي ، وهؤلاء نفر من مهاجرة الحبشة يعودون إلى مكة ، منهم من يعلن

(١) اجتث الشجرة : قلها .

(٢) على رسولك : تمهل .

(٣) إبانها : وقتها وحياتها .

عودته و منهم من يستخون بها . و عاد في هؤلاء التفر عبد الله بن سهيل ؛  
في لقاء أبوه أحسن لقاء ، و يتحدث إليه حديث البشاشة والبشر ،  
و الفقي متحفظ متأثر ، كأنه يرى في الاستماع لحديث أبيه بأساً .  
ولكن سهلاً يصربي إلخدي يديه بالأخرى ، فما هي إلا أن يستجيب  
له أَعْبُدُ شِدَّادَ يُحِيطُنَ بِعِدَّةِ اللَّهِ ، فيوثقونه ثم يحملونه سجينًا إلى  
أعماق الدار ، ومنذ اليوم يذيقه أبوه من الفتنة شيئاً عظيماً .

## ١٤

لم تعرف مكة في تاريخها الطويل القديم يوماً كذلك اليوم المشهود ،  
وإن كانت قد عرفت بعده أيامًا مشهودة ليست أقل منه شدة  
وَنُكراً .

كانت بلداً آمناً ، لا يعرف أهلها كيداً ولا مكرًا ولا بغضنا ولا  
عداء ، وإنما يستقبلون أمرهم راضين عنها مبهجين بها مطمئنين  
إليها . يكون بينهم التنافس في المال والاستباق إلى الجد ، ولكنهم  
على ذلك لا يبغى بعضهم على بعض ، ولا يبطش بعضهم ببعض ،  
وإنما تجري أمرهم على الدعة والإتساح . وأقصى ما يبلغ الشر بينهم  
أن يقول بعضهم لبعض قليلاً أو كثيراً ما يكره من القول ، ثم  
لا يلبثون أن يعود بعضهم على بعض بالعافية ، وأن يهدى بعضهم إلى  
بعض ألوان البر والمعروف . وقد عرفت العرب الفاسية والدانة

ذلك من أمرهم ، فهوت <sup>(١)</sup> إليهم الأفلاة ، وعطفت عليهم القلوب ،  
 واتصلت بهم الآمال ، وتعلقت بهم النقوص ، حتى أصبح بلدتهم  
 وماحوله من الأرض سرّاماً آمناً يأوي إليه الخائف ويلوذ به الملهوف <sup>(٢)</sup> .  
 ولكن مكة تصبح في ذلك اليوم وقد أظهرت لها السماء ابتساماً ،  
 فلأذن بطاحتها وجبلها وربّها بأشعة الشمس المشرقة الرائعة ،  
 ولكنها أضمرت لها عبواً أى عبوس ، فلأذن قلوب نفر من أبنائها  
 بالظلمة المظلمة والكيد المفضي بأهله إلى شرّ ما ينتهي إليه الناس .  
 أصبحت قريش في ذلك اليوم ، فنداً الملاً منها إلى أنديتهم  
 في المسجد ، وأخذوا فيها كانوا يأخذون فيه من حديث ، إلا نفر  
 منهم لم يذهبوا إلى المسجد ولم يحضروا أندية قومهم ، ولم يشغلوا  
 أنفسهم ببيع أو شراء ، ولم يسروا <sup>(٣)</sup> عن أنفسهم بصيد أو طرد  
 أو جنون . وإنما شغلوا بشيء غير ذلك كله : شغلوا بسيئة العذاب  
 وجه النهار ، وشغلوا بشهود العذاب وسط النهار ، وشغلوا  
 بالتحدث عن العذاب آخر النهار ، ولكنهم لم يتحدثوا عنه وحدهم ،  
 وإنما تحدثت عنه قريش كلها ؛ ولم تبقَ في مكة دار إلا ذكر  
 فيها أمر ياسر وامرأته وابنه ، وأمر صهيب ، وأمر خباب ، وأمر  
 بلال . وكانت أحاديث قريش عمما صُبَّ على هؤلاء الرهط من العذاب

(١) هوت : مالت وأسبت .

(٢) الملهوف : الحزين ذهب له مال أو فجع بعيم ، والمظلوم ينادي ويستفيث .

(٣) يسرى عنه نفسه : يرقه ويكشف عنها المم .

مختلفة أشد الاختلاف : فأماماً شيوخ قريش ذوو أحلامها فكانوا يجدون في سيرة أبي جهل وأخراه غلواً في الشر وإسرافاً في القسوة ، ولكنهم على ذلك كانوا يعللون أنفسهم بأن هذه الشدة قد تخوف محمدأً وأصحابه وتردهم إلى شيء من القصد والأناة ، وإلى أنها قد تردد<sup>(١)</sup> الرقيق والمستضعفين وترىهم ما ينتظرون الذين يصيرون منهم إلى محمد وأصحابه من البأس والضرر والعقاب . فكانت ضمائهم تذكر وقلوبهم تسكت ، وألسنتهم تعرف . وأما الشباب من قريش فكان أكثرهم يرى في هذا البدع لوناً مستحدثاً من التسلية والتسرية والاشتغال عن النفس وعما تعودت أن تتلهى به من ألوان العبث والمحبون . وفي غرائز الناس ميل إلى الشر ، واستحباب للنكر ، واستعذاب للعقاب حين يمس غيرهم ويدفعهم إلى فنون من الألم وضروب من الحركات التي يثيرها الألم ، وإلى ألوان من الشكاوة التي يبتئلها الألم .

وفي قلوب الشباب قسوة وخفة ، وفي أحلامهم نزق وطيش<sup>(٢)</sup> . فهم ينظرون إلى من يُمتحن في بدنـه ، ويأتـيـنـ من الحركة والقول ما يُسـلـيـمـ ويـلـهـيـمـ ، عـلـىـ أـنـ مـتـاعـ لـأـبـصـارـهـ وـفـوـسـهـ ؛ ولا يـقـدـرـونـ أنـ هـذـاـ العـذـابـ يـمـكـنـ أـنـ يـصـبـ عـلـيـهـمـ ، وـأـنـ هـذـهـ الحـرـكـاتـ والـشـكـاـةـ يـمـكـنـ أـنـ تـصـدـرـ عـنـهـمـ ، فـتـضـحـكـهـمـ فـوـمـ آخـرـينـ . ولو قد وضع الإنسان نفسه موضع الذين يُصـبـ عـلـيـهـمـ العـذـابـ

(١) تردد : تکف وترد .

(٢) النزق والطيش : الخفة .

**لـخـبـَّ النـَّاسـَ شـَرـًّا كـَثـِيرـًا** . فـَكـَانـَ أـُولـَئـِكـُ الشـَّابـُونـَ مـِنـَ قـَرـِيشـِ يـَتـَحـَدـُثـُونـَ بـِرـَاءـَ أـَبـِي جـَهـَلـَ فـِيهـَا كـَانـَ يـَخـْتـَرـُ مـِنـَ الـَّوـَانـِ الـَّفـَتـَنـِ وـِالـَّخـَنـَةـِ رـَاضـِيـِنـَ عـَنـَهـَا مـُعـَجـِّبـِيـِنـَ بـِهـَا . وـَكـَانـُوا يـَتـَحـَدـُثـُونـَ عـَنـِ احـْمـَالـَ أـُولـَئـِكـُ الرـَّهـَطـِ لـِلـَّفـَتـَنـِ فـِي أـَنـْفـَسـِهـِمـَ بـِالـَّخـَلـَدـِ وـِالـَّصـَبـِرـِ وـِالـَّأـَنـَاءـِ فـِي كـَثـِيرـَ مـِنـَ الإـَعـَجـَابـِ . كـَمـَ كـَانـُوا يـَتـَحـَدـُثـُونـَ فـِي عـَبـَثـِ وـِغـَرـِيـَّةـِ بـِمـَا كـَانـَ أـَجـَسـَمـِ أـُولـَئـِكـُ الرـَّهـَطـِ تـَأـَقـِيـَّـَ مـِنـَ الـَّخـَرـَكـَاتـِ حـِينـَ يـَمـَسـُهـَا الـَّعـَذـَابـِ .

قال الحارث بن هشام لابن أخيه عكرمة بن أبي جهل :  
ألم تر إلى سمية كيف كان جسمها يتلوى حين كانت السياط تلهبها بغير حساب ، دون أن يفتر عنها عن صبيحة أو آنثة أو شهيف وهي التي كنا نثيرها إلى الخوف أو نثير الخوف إليها بأيسر ما كنا نأتي من الحركات ، نبعث بها ونسخر منها حين نراها تثور كأنما دفعت من الأرض بلوب خفي ! قال عكرمة : لم أعجب لشيء كما عجبت لزوجها الشيخ الذي مزق جسمه بالسياط وحرق بالنار ليذكر الآلة بخير ، فلم يظفر منه أبي إلا باسم الآلة والاسهـاءـ بهـاـ . أما ابنه عمار فقد سكت ضوته ، وسكن جسمه للعذاب ، وارتسمت على ثغره ابتسامة حلوة مرة ، ما أدرى أكانـتـ تصـورـ الرضاـ أمـ كـانـتـ تصـورـ الغـيـظـ ؟ ولـكـنـهاـ اـرـتـسـمـتـ فـِيـ نـفـسـيـ أـشـدـ ماـ اـرـتـسـمـتـ عـلـىـ ثـغـرـهـ ؛ وـمـاـ أـرـىـ أـنـهـ سـتـغـيـبـ عـنـ آخرـ الـدـهـرـ .  
قال صفوـانـ بنـ أـمـيـةـ : فـَكـيـفـ لـوـ رـأـيـتـاـ بـلـالـاـ ذـلـكـ الـجـبـشـيـ وـالـفـتـنـيـ مـنـ الـأـحـرـارـ وـالـرـقـيقـ يـتـنـازـعـونـ جـسـمـهـ يـأـخـذـ كـلـ مـنـهـ بـطـرفـ ، كـأنـماـ

كانوا يريدون أن يقتسموه بينهم ، وهو في أثناء ذلك لا يُئن ولا يشكو وإنما يُثني على محمد ويدرك إلهه ذاك بالغير . قال خالد بن الوليد : أما أنا فقد رأيت من **صَهِيب عجباً** : رأيت القوم يعذّبونه بالنار وينوشهونه<sup>(١)</sup> بالرماح **وُلْهَبُونَ** جسمه بالسياط ، وهو على ذلك يتحدث إليهم حديث من لا يحفل بما كانوا ينالونه به من الأذى . وربما اشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة ، وأجري على جبينه شيئاً من عرق ، ثم لا يلبث أن تثوب إليه نفسه ويعود إلى التحدث إلى معدّيه في بعض أمرهم ، كأنهم لم ينالوه بمكره . وما يزالون به يعذّبونه بالحديد والنار والسياط ، وما يزال بهم يعذّبهم بهدوئه وثباته وتحدّثه إليهم في أيسر أمرهم ، حتى إذا أملتهم أو كاد يُملّهم ضاعفوا له العذاب ، وخرجوا في ذلك عن أطوارهم ، فيسعى إلى **صَهِيب** شيء من ذهول ، ثم يأخذه شيء يشبه السكر ، فيمضي في حديثه ، ولكنه يقول للقوم غير الصواب . ويعرف القوم أنهم قد بلغوا منه بعض ما كانوا يريدون ، فيكفون<sup>(٢)</sup> عنه مكاوبهم ورماحهم وسياطهم ، وأشهد لقد انصرفت عن هؤلاء القوم وإن بعض أمرهم لكاره . قال الحارث بن هشام : اسكت لا يسمعك ابن عملك فيصييك منه بعض ما تكره .

(١) ينوشهونه : يتناولونه ويطعنونه .

(٢) يكفون : يمنعون .

كذلك كان الشباب من قريش يُعجبون بأولئك الرهط<sup>(١)</sup> المعذَّبين  
 ويَعْجِبُونَ منهم ، يستهزئون بهم طوراً ويعطفون عليهم طوراً آخر .  
 وأما المستضعفون والرقيق فكانوا يرون الشر ويُعْيِّنون عليه حين  
 يُطلبُ إليهم أن يُعيّنوا عليه ، تكرّهه نقوسهم وترضى عنه ألسنتهم ؛  
 قد ملأ الخوف أكثرهم ، وتسرب الحب والإشراق إلى قلوب  
 فريق منهم ؛ فهم ينتزون الفرصة ويتربصون بقريش الدوائر<sup>(٢)</sup> ،  
 ويتحادثون إلى أنفسهم ، وربما تحدث بعضهم إلى بعض ، إذا  
 خلا بعضهم إلى بعض ، بأن الخير كل الخير عند محمد وأصحابه .  
 وبأن الخير كل الخير في أن ينحازوا إليهم .. فالضعف إلى الصعب  
 قوة . ومن يدرى ! لعل الله أن يتصف لهم ولأمّتهم بـمحمد وأصحابه  
 من أولئك البغاء الظالمين . وأما المسلمين الذين صرف عنهم العذاب  
 ونحيتُ عنهم الفتنة فكانوا يشهدون وفي نقوسهم ألمٌ وأملٌ ، وفي  
 قلوبهم حزنٌ وثقة ، قد اطمأنوا إلى أن العاقبة لهم ، واستيقنوا بأن  
 الله منجز وعده ، ولكلّهم على ذلك يرجون لـإخوانهم ، وربما تمنوا  
 لو كانوا مكانهم فاحتملوا عنهم بعض ما يحتملون من الأذى .  
 وربما كان أصدق وصف لـمكّة حين أمسى المساء من ذلك  
 اليوم أن أكثر أهلها كانوا حائرين ، يرون الفتنة ولا يدركون أيعرفونها  
 ينكرفونها ! لأنّهم لا يعرفون أخيراً هي أم شرّ ! وأن أقلّ أهلها

(١) الرهط : الجماعة دون المشرة .

(٢) يتربص به الدوائر : يتّظر نزول الدوامى .

كأنوا قد صَدَقُوا الله ما عاهدوا عليه ، فرضيت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واستيقنوا أن العاقبة للمتقين . ولو كشف الغطاء عن أهل مكة لرأوا حين تقدم الليل من ذلك اليوم أن من حول مكة أعياداً يحفل بها الشياطين وقد استخدهم الفرح واستهواهم الظرف ، ورأوا أصحاب محمد يعلّبون أشد العذاب وأقساه ، فغرّهم بالله وبأنفسهم الغرور ، وظنوا أن فتنة هؤلاء الرهط ستحفظ لهم سلطانهم على مكة ، وستتمكن لهم في قلوب قريش .

وأصبح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتحذثروا إليه من أمر الفتنة بما علموا ، ولكنه تحدث إليهم من أمرها بما لم يعلموا ، لا لأنّه شهد الفتنة ، أو رأى كيف كانت تُصبَّ على المستضعفين من أصحابه ، بل لأنّ أمر الفتنة كلّه قد أوحى إليه .

خرج النبي وأصحابه فتفرقوا في أحياء مكة يسعى بعضهم هنا ويسعى بعضهم هناك ، يلتمسون فضلاً من ربهم ، ويريدون في أكبر الطن مُواساة لهؤلاء المستضعفين الذين كانوا يُفتنتون عن دينهم ويُعدّون في الله . ويمشي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض بطحاء مكة وقد وضع يده في يد عثمان بن عفان ، وما يزالان يماشيان حتى يبلغا آل ياسر ، وقد سطحوا على الأرض مُوثقين ، ووضعوا على صدورهم الصخور الثقيلة ، ويحمل المشركون يمسوهم بالنار حيناً بعد حين ، وربما يخزونهم بالتجاجر والحراب ، وتلاذتهم سكوت لا ينطقون حرفًا ، والمشركون قد ملأ قلوبهم الغيظ ، لأنهم

لایبلغون منهم شيئاً . وقد أنكروا صوتهم الذى اتصل منذ أخذ في تعذيبهم مع الضحى ، حتى جعلوا يشطرون عليهم في الباس<sup>(١)</sup> ليستخرجوا منهم آنة أو شكاوة . ولكنهم ماضون في الصمت ، قد ثبت الله قلوبهم ، وصرف عن نفوسهم الجزع والهلع . فإذا مرّ النبي وصاحبه بهؤلاء الرهط المعدبين سمع المشركون صوت ياسر لأول مرة من يومهم ذاك ، سمعوا صوت ياسر لا يتوجه إليهم وإنما يتوجه إلى النبي فيقول : الدهر هكذا يا رسول الله . قال رسول الله : أبشروا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة . هنالك يسمع المشركون صوت سمية لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعون صوت سمية لا يتوجه إليهم وإنما يتوجه إلى النبي فيقول : أشهد أنك رسول الله ، وأشهد أن وعدك الحق . وهنالك يسمع المشركون صوت عمار لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعونه لا يتوجه إلى أبيه ، ولا يتوجه إلى النبي وصاحبه ، وإنما يتوجه إليهم هم فيقول : عذبونا يا أعداء الله ما شتم ؟ فإن موعدنا الجنة وأنوافكم راغمة . هنالك يخرج المشركون عن أطوارهم<sup>(٢)</sup> ويصيرون على أولئك الرهط من العذاب ما ليس إلى وصفه سبيل .

ويمضي أبو بكر في بعض بطحاء مكة فيري بلا ولا وقد عذب حتى ملت قريش تعذيبه . عذبوه بالنار والماء ، وعذبوه بالحديد

(١) يشطرون عليهم في الباس بـ: الشون في قـ: وفهم

(٢) خرج عن طوره : جا . حـ: وقـ: دـ: رـ:

والسياط ، طرحوه على الأرض في الرمضاء<sup>(١)</sup>، وأنقلوه بالصخر ،  
 يريدونه على أن يذكر آهتمهم بخير فلا يسمعون منه إلا : أحد ،  
 أحد . يقول له أمية بن خلف : اذْكُر آهْتَنَا بِخَيْرٍ يَا بَلَالٍ يُرْفَعُ  
 عَنْكَ الْعَذَابَ ؛ فَيَجِيبُ : إِنَّ لِسَانِي لَا يَطَاوِعُنِي . ثُمَّ يَعْصِي فِي  
 ذَكْرِهِ قَائِلاً : أَحَد ، أَحَد . فَيَعْلَمُ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَأَصْحَابُهُ فَيَضَعُونَ  
 عَنْهُ أَثْقَالَهُ ثُمَّ يَقِيمُونَهُ ، ثُمَّ يَضَعُونَ الْحَبَالَ : حَبْلًا فِي إِحْدَى ذَرَاعِيهِ  
 وَحَبْلًا فِي ذَرَاعِهِ الْأُخْرَى ، وَحَبْلًا فِي إِحْدَى سَاقِيهِ وَحَبْلًا فِي سَاقِهِ  
 الْأُخْرَى ، ثُمَّ يَدْعُونَ الصَّبِيَّةَ وَيُلْقَوْنَ إِلَيْهِمُ الْحَبَالَ ، وَيَأْمُرُونَهُمْ أَنْ  
 يَعْدُوا بِبَلَالٍ حَتَّى يَجْهَدُوا أَنفُسَهُمْ وَيَجْهَدُوهُ . وَيَفْعَلُ الصَّبِيَّةُ مَا  
 أَمْرَوْا ، فَيَعْدُونَ بِهِ إِلَى الْيَمِينِ ، وَيَعْدُونَ بِهِ إِلَى الشَّمَاءِ ، وَيَعْدُونَ  
 بِهِ إِلَى أَمَامِ ، وَيَعْدُونَ بِهِ إِلَى وَرَاءِ ، وَهُمْ يَتَصَاحِحُونَ وَيَتَضَاحِكُونَ ،  
 وَأُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَأَصْحَابُهُ يَنْظَرُونَ وَيَتَعَابِثُونَ ، وَبَلَالٌ لَا يَخْفَلُ بَشَّيْءٍ  
 مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَبعُ الْعَادِينَ بِهِ حِيثُ يَعْدُونَ ، لَا يَقاومُ  
 وَلَا يَتَسْعَنُ وَلَا يَنْفَكُّ لِسَانَهُ عَمَّا أَنْهَدَ فِيهِ مِنْ ذَكْرٍ : أَحَد ، أَحَد ،  
 أَحَد ، أَحَد ، وَقَدْ يَلْعَبُ الْجَهَدُ مِنَ الصَّبِيَّةِ حَتَّى يَجْعَلُهُمْ يَلْهَثُونَ ، ثُمَّ  
 تَرَاهُتْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْقَوْا بِجَبَلِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ . وَظَلَّ بَلَالٌ قَائِمًا مَاضِيًّا  
 فِي ذَكْرِهِ : أَحَد ، أَحَد . حَتَّى يَلْغَيَ الْغَيْظُ مِنْ أُمِيَّةَ وَأَصْحَابِهِ ،  
 فَيَدْفَعُ بَعْضُهُمْ فِي صَدَرِ بَلَالٍ حَتَّى يُلْقَوْهُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَى ظَهُورِهِ .

---

(١) الرَّمْضَانُ : الْأَرْضُ الْحَارِمَةُ مِنْ حَرَارةِ الشَّمْسِ الشَّدِيدَةِ .

فيسقط ويُسمع لسقوطه صوت مروع ، ولكن ذكره متصل :  
 أحد ، أحد . ويَهِمْ أمية أن يطش به ليسكت هذا الصوت  
 ويقطع هذا الذكر ، ولكن أبا بكر يعرض له قائلا : وَيَحْكُمْ !  
 فيم تعذبون هذا الرجل ؟ قال أمية : وما أنت وذاك يا ابن أبي قحافة ؟  
 عبد لنا تصنع به ما نشاء . قال أبو بكر : هو عبد الله قبل أن  
 يكون عبدك يا أمية . إنك إن تأت على نفسه تائس وَتُضَيِّعَ مالك ،  
 فهل لك في شيء خير من ذلك ؟ قال أمية : وما ذلك ؟ قال  
 أبو بكر : أشتري منك هذا الرجل ، واحتكم في ثمنه . قال أمية وقد  
 ضجر بيلال وتأديبه وتعذيبه : قد فعلت ، فَادْ إِلَى ثمنه سبع أواق .  
 قال أبو بكر : فخل سپيله ورخ معى إلى حيث أودى إليك  
 مالك . قال أمية : أَدْ إِلَى مالى أَخْلَى عنه . قال أبو بكر :  
 وَيَحْلُثَ يا أمية ! مني عهدتني أتوى عليك بالدين . ؟ قال  
 أمية وقد استحبها : صدقت ، خذ غلامك وأرسل إلى ثمنه مني  
 شئت . قال أبو بكر : إنما هي روحى إلى أهل ثم يؤدى مالك  
 إليك .

وأخذ أبو بكر بلالاً من يده فانطلق به إلى داره ، وهنالك  
 رفق به وخفقَ عنه بعض ما وجد من الفسر ، وأرسل إلى أمية ماله .  
 وَتَلَبَّثَ في داره يرافق بيلال وَيَتَحَدَّثُ إليه ، ويقرأ عليه من آيات  
 الذكر ، حتى إذا عاد رسوله وعرف أبو بكر أن أمية قد قبس  
 ماله التفت إلى بلال وابتسم له وقال : انطلق بلال فأنت حر .

وأمسى أبو بكر فلقي رسول الله وأباه بما رأى من فتنة بلال ، وبأنه لم يستطع أن يستنقذه حتى اشتراه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : الشركة يا أبا بكر . قال أبو بكر فلقي قد أعتقه يارسول الله !

ومرَّ قومٌ آخرون من أصحاب النبي بھي آخر من أحياء قريش فيرون ، ويا هول ما يرون إناراً عظيمة قد أبججت ، ويرون رجالاً قد شدَّ وثاقه<sup>(۱)</sup> ، ويرون قوماً يحملونه ويدفعونه من النار حتى توشك أن تُحيط به ، ثم يختطفونه اختطافاً فيبعدون به عن النار ، ثم يُقيمونه أمامهم مشدوداً مقيداً ، ثم يتقدم أحدهم فيدفع برجله في صدره دفعة تسقطه إلى ظهره وهم يتضاحكون ، ثم يعودون فيفعلون به مثل فعلهم الأول . يقول له قائلهم : اذكرْ آهنتنا بخير وَقَع<sup>(۲)</sup> في محمد ودينه أو تُميِّنَتَكَ هذه النار وهذه الأرض ! فلا يسمعون منه إلا : أشهد أن محمداً رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق . وما يزالون يقدّمونه إلى النار ويُخْرُجُونَهُ عنها ، ويدفعونه إلى الأرض ثم يردونه قائماً حتى يُغشى عليه . هنالك يقول بعضهم البعض : أبقوا عليه يا عشر قريش ، لا تأتوا على نفسه ، فيسألوك عنده حلفاؤه من زُهْرَة .

ويعد أصحاب النبي فينبئون أخوانهم بما رأوا من أمر خباب

(۱) الوثاق : ما يشد به من قيد وحبل .

(۲) قع في محمد : سبه .

ابن الأرَّةَ . وتفضي أمور قريش والمستضعفين من المسلمين على هذا النحو الأيام ثم الأشهر ثم السنين ، لا تبلغ قريش من هؤلاء المستضعفين شيئاً في دينهم ، إلا أن تكون كلمة الله قد حقت على بعضهم فيفتن عن دينه ويُكفر بعد إسلام ، أو أن يكون الله قد آثر بعضهم بالحسنى فيختاره بخواره ويجعل له عنده مقاماً مُحْمَداً .

اجتمعت قريش ذات يوم لأمر عظيم حين انتصف النهار ، زعم لها أبو جهل أنه بالغٌ من ياسر وأهله ما يربى ؛ فقد عذبهم حتى أشفوا على الموت ، ولن يترکهم حتى يذكروا آلته قريش بخير ويقعوا <sup>(١)</sup> في محمد بما يكره . قال عتبة بن ربيعة : هيات أبا الحكم ؛ إن ياسراً رجل " جلد " <sup>(٢)</sup> ، وإنما علمت ليؤثر الموت على أن يبلغك ما ترضى . قال أبو جهل : فإن ذكر آهتنا بخير وذكر مهداً بسوء ؟ قال عتبة بن ربيعة : هيات يا أبا الحكم ! إنما هي أمانى ، وما أرى إلا أنك قد أزمعت أن تأتى على نفس هذا الشخ . قال أبو جهل : فإن ذكر آهتنا بخير وذكر مهداً بسوء ؟ قال عتبة : فلث عشرون من الإبل . قال شيبة بن ربيعة : ولث مني مثلها . قال أبو جهل : إن مالكم علىكم لطين . قال عتبة :

---

(١) يقعوا في محمد : يسبوه ويعيبوه وينتابوه .

(٢) جلد : شديد قوى ، صبور .

فَإِنْ أَتَيْتَ عَلَى نَفْسٍ يَاسِرًا . . قَالَ شِيبَةُ : دُونَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْهُ مَا تَرِيدُ  
وَنَرِيدُ ؟ قَالَ أَبُو جَهْلٍ : فَاحْتَكُمَا إِذْنًا . قَالَ عَتْبَةُ : لَنْ نَحْتَكُمْ  
وَلَنْ نَرِزَّاكُمْ<sup>(١)</sup> فِي مَالِكٍ شَيْئًا ، وَحَسِبْنَا أَنْ تَظْهَرَ مِنْ نَفْسَكُمْ عَلَى عَنَادِهَا .  
وَأَقْبَلَ الَّذِينَ اسْتَخْفَتُمُوهُمْ هَذِهِ الْأَنْطَرَةَ فَشَهَدُوا عَذَابَ يَاسِرٍ وَسَهْيَةَ  
وَعَمَّارٍ .

وَلَمْ تَرْ قَرِيشٌ مِنَ الْعَذَابِ فِي مَكَّةَ مِثْلَ مَا رَأَتِ ذَلِكَ الْيَوْمَ ،  
وَلَكِنَّهَا عَلَى ذَلِكَ لَمْ تَظْفَرْ بِشَيْءٍ مَا أَمْلَتْ . أَقْبَلَ أَبُو جَهْلٍ وَمَعْهُ  
أَصْحَابُهُ ، فَرَأَى النَّاسَ أَنْطَاعًا مِنْ أَدَمَ<sup>(٢)</sup> يَسْعُ كُلَّ نَطْعٍ مِنْهَا  
رِجْلًا وَقَدْ مُلْتَثَّ مَاءً ، وَرَأَوْا نَارًا مُؤْجِجَةً وَمَكَاوِيَ قَدْ أَحْمَى عَلَيْهَا ،  
وَرَأَوْا تَلْكَ الأَسْرَةَ قَدْ شُدَّ وَثَاقٌ كُلُّ مِنْهَا وَأَلْقَى ثَلَاثَتِهِمْ فِي جَانِبِ  
مِنَ الطَّرِيقِ كَمَا يُلْقَى الْمَنَاعُ غَيْرُ ذِي الْخَطْرِ . فَلَمَّا بَلَغَ أَبُو جَهْلٍ  
وَأَصْحَابَهُ مَكَانَ الْعَذَابِ أَمْرَ غَلِمانَهُ فَوْضَعُوا بَيْنَ يَدِيهِ يَاسِرًا وَسَهْيَةَ وَعَمَّارًا ،  
وَأَسْنَتُهُمْ لَا تَفَرِّ عنْ ذِكْرِ اللَّهِ . فَأَهْلَبُ أَجْسَامَهُمْ بِالسِّيَاطِ ، ثُمَّ  
أَذَاقُهُمْ مَسَّ النَّارِ ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهَا قَرْبَ المَاءِ ، ثُمَّ عَادُ فِيهِمْ  
سِيرَتِهِ تَلْكَ مَرَّةً وَمَرَّةً ، ثُمَّ أَمْرَ فَغْطَوْا فِي الْأَنْطَاعِ الَّتِي مُلْتَثَّ مَاءٌ  
حَتَّى انْقَطَعَتْ أَنْفَاصُهُمْ أَوْ كَادَتْ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ إِلَى الْهَوَاءِ ، وَانتَظَرُ  
بَيْهُمْ حَتَّى أَفَاقُوا ، وَتَسْعَ مَلَأْ يَنْطَقُونَ بِهِ بَعْدَ أَنْ ثَابَ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ

(١) لَنْ نَرِزَّاكُمْ فِي مَالِكٍ : لَنْ نَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْقُصُهُ .

(٢) الْأَنْطَاعُ : جَمِيعُ نَطْعٍ وَهُوَ بِسَاطٌ مِنَ الْجَلَدِ يَفْرَشُ تَحْتَ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ  
أَوْ يَقْطَعُ الرَّأْسَ . وَالْأَدَمُ : الْجَلَدُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَّ قَرْبَ المَاءِ .

من قوة ، فإذا هم يذكرون الله ويُشنون على محمد . قال أبو جهل لسمية وقد بلغ منه الغيظ أقصاه : لتدكرنْ آهتنا بخير ولتدكرنْ حمداً بسوء أو سُئلْتُونَ . تعلمي أنك لن ترئي مساء هذا اليوم إلا أن تكفرى بمحمد وربه . قالت سمية بصوت هادئ متقطع قليلاً : بوساً لك ولاهتك ! وهل شيء أحب إلى من الموت الذى يريحي من النظر إلى وجهك هذا القبيح ! هنالك تصاحك عتبة وشيبة بن ربيعة ، وأنخرج الحنق أبا جهل عن طوره فجعل يضرب في بطنه سمية برجله وهي تقول له في صوتها المادئ المتقطع : بوساً لك ولاهتك ! وسُعْجَنْ جنون أبي جهل ، فبطعن سمية بحربة كانت في يده فتشق شهقة خفيفة ثم تكون أول شهيد في الإسلام .

يقول ياسر : قتلها يا عدو الله ! بوساً لك ولاهتك ! ويقول عمار : قتلها يا عدو الله بوساً لك ولاهتك ! يمتلى قلبك غيظاً وحققاً ! فإن رسول الله قد ضرب لها موعداً في الجنة . قال ياسر :أشهد أن وعد الله حق . ولكن أبا جهل لم يمهله ، وإنما يضرب في بطنه برجله فيشق ياسر شهقة ثم يصبح ثانى شهيد في الإسلام . قال عتبة وشيبة بن ربيعة : ألم تُحكِّمنا إن لم تبلغ من ياسر وأمرأته شيئاً ؟ فسكت أبو جهل ، وقال الملا من قريش : بلى ! نحن على ذلك شهداء . قال عتبة : فنبيني أن نطلق هذا الرجل وأن تخلى بيته وبين الحرية ليوارى أبويه .

وراح أبو جهل من يومه ذاك إلى أهلها مغيناً مُخنقاً منكسر

النفس ، لا يدرى أغاظه أن أفلت من هذان الشهيدان دون أن يبلغ منها ما أحب ، أم غاظه أن صـ هـما وبـهـما وإقدامهما على الموت في غير جزع ولا هلع ولا اضطراب إنما هو انتصار محمد ودينه الجديد على قريش وديتها القديم ، فأحباب محمد يموتون في سبيله وفي سبيل دينه ، وضعفاء قريش وأشرافها وأحلافها يسعون إلى محمد فيؤمنون له ، يستخفى بذلك أكثرهم ويعلن ذلك أقلهم ، ولكنهم يسعون إليه ويؤمنون له على كل حال ، وهؤلاء المستضعفون وهؤلاء الرقين الذين كانوا يؤمنون لأشراف قريش بالسيادة ويدلينون لهم بالطاعة ويرهبونهم غائبين وشاهدين ، قد أخذدوا يتعمدون عليهم ويثرون بهم وينكرن سعادتهم وسلطانهم ، يبادونهم بذلك أحياناً ويُخفون ذلك عليهم أحياناً أخرى ، فإذا أخذت منهم قريش هذا الحر أو ذلك الرقيق لم يهابا ولم يرها ولم يذعنوا ولم يستكينا ، وإنما استقبلوا العذاب والفتنة وقلوبهما راضية ونفوسهما مطمئنة وعلى ثغريهما ابتسامت تحفظ وتملأ النفوس ـ حنقا<sup>(١)</sup> . أغاظ أبا جهل هذا كله ، أم غاظه أن محمدـ يسمع ويري ويعلم من أنباء الفتنة والعذاب ما تعلمه قريش كلها ، فلا يهاب ولا يرعب ولا يترك شيئاً مما هو فيه من نشر دينه الجديد والدعوة إليه ، ثم هو لا يكتفى بذلك وإنما يخرج مع بعض أصحابه فيواسى من يذهبون من أتباعه بما يقول له من هذا الكلام الذى يلهمونه التهاماً ، والذى يزيدهم

(١) تحفظ : تنفس وتنفظ . الحق : شدة الاختيال .

على الفتنة والمحنة صبراً وثبتياً . وأى سخر من قريش أشدَّ من هذا السخر ! وأى استفزاز لقريش أشدَّ من هذا الاستفزاز ! وأى ازدراء لسلطانها أشدَّ من هذا الازدراء ! وأى استهزاء بالملأ من أشرافها أشدَّ من هذا الاستهزاء ! وما عسى أن يقول العرب في أقصى الأرض وأدنىها حين تعلم أن في جنب قريش شوكة أعيت سادتها وقادتها وذوى أحلامها ، فلم يستطعوا لها انتزاعاً ، وإنما ثبتت لكيدهم وبكرهم ، ثم جعلت ثبت من حوطها شوكاً صغاراً ، إن لم تكن مثلها قوة وحدة وأيداً فهى تنشر الأذى وتُشيع الألم ، وتوشك أن تجعل جسم قريش كله عليلاً لا أمل له في بره أو شفاء ؟

أغاظ هذا كله أبا جهل ، أم غاظه أن الملأ من قريش رأوا أن شدته لم تغرن عنهم ولا عن آفتهم شيئاً ، وإنما انتهت إلى القتل الذي لا تجده قريش ، والذي لا يزيد محمدًا وأصحابه إلا استسماكاً بدمائهم وصبراً فيه ؟ أم غاظه أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة قد ظفرا به وظفرا عليه وشمتا بما كان يُظهر من حزم وصرامة وجد ، ويوشكان بعد هذا الإخفاق أن يستأثرا بسمع قريش وقلبها وجهاً وقيادها ؟ أم غاظ أبا جهل كلَّ هذا مجتمعاً ؟ لست أدرى ، ولكنني أعلم أنه راح إلى أهله مغيظاً محتقاً يظهر الغضب ويختنق انكسار النفس . وقد ساء لذلك خلقه ، فلم يستطع أحد من أهله أن يقول

---

(١) الملأ : السادة ، الجماعة الأشراف .

له شيئاً أو يسمع منه شيئاً . لم يجلس إلى طعام ولم يسْنَ الحديث ، وإنما خلا إلى نفسه فتفق ليلة ثائرة حزينة كثييراً لم يذق فيها النوم إلا غراراً<sup>(١)</sup> .

كذلك راح أبو جهل إلى داره وأتفق ليلته فيها . فلما عمار فقد هُمل إلى داره ، وُهُمل معه أبواه : حلهم قوم من قريش فيهم المسلم وفيهم غير المسلم ، قد نتسوا أو تناسو ما بينهم من خصومة ، وذكروا أن بينهم مكروباً يجب أن يُواسى ، ومتين يعجب أن يواريَا في التراب . وقد نهضوا بهذا كله متعاونين كأحسن ما يكون التعاون ، فرفقوا بعمار ، ولم يكن في حاجة إلى الرفق ، وأعانوه على دفن أبويه وكان إلى معونتهم على ذلك محتاجاً . وعاد عمار بعد أن وارى أبويه إلى داره وقد تفرق عنه المشركون والتآمت حوله جماعة من المسلمين . وكان عمار يجحد في جسمه ألم العذاب ، ويجد في قلبه حلاوة الإيمان ، ويجد في نفسه لذعَ الحزن على أبويه . يقول له عثمان بن عفان : ما يحزنك عليهما وقد استوفيا نصيبهما من الدنيا وسبقاك إلى نعيم الله ورضوانه ؟ ألم تسمع بني الله وهو يصرب لكم موعداً في الجنة مرّة ، ويدعوكم إلى الصبر مرّة أخرى ، وهو يقول : اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ؟ قال عمار صدقتَ أبا عمرو ، ما ينبغي أن أحزن عليهما ، وإنما ينبغي أن أستبشر لهما وقد سبقا إلى الجنة ،

---

(١) غراراً : قليلاً .

وَعَدَهُمَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ وَوَعَدَ اللَّهُ أَحَقُّ . قَالَ عُمَانٌ : فَإِنْ رَسُولُ  
 اللَّهِ قَدْ وَعَدَكُمَا وَعَدَهُمَا بِهِ ! قَالَ عُمَارٌ : هِيَاهَا أَبَا عُمَرُ ! لَوْ مَتَّ  
 مَعَهُمَا لَكُنْتُ خَلِيقًا أَنْ أَرْضِي ، وَلَكُنْهُمَا ذَهَبَا وَبَقِيَتْ ، وَفِي الْحَيَاةِ  
 فَتَتَّهُ وَفِي النَّفْسِ ضَعْفٌ . وَإِنَّهُ لِيَحْزُنُنِي أَنْ فَاتَنِي بِهِمَا الْمَوْتُ فَأَصْبَحْتُ  
 مَعْرَضًا لِمَا يَتَعَرَّضُ النَّاسُ لَهُ مِنَ الْإِثْمِ الَّذِي يُحْبِطُ الْعَمَلَ<sup>(۱)</sup> ، وَمِنَ  
 السَّيِّئَاتِ الَّتِي تَمْحُو الْحَسَنَاتِ . قَالَ عُمَانٌ : مَا يَبْنِي أَنْ تَيَأسَ  
 مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَقْنِطَ مِنْ رَحْمَتِهِ . وَإِنَّكَ مَعْرُضٌ لِلْإِثْمِ كَمَا  
 أَنَّكَ مَعْرُضٌ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَإِنَّكَ مَعْرُضٌ لِلسَّيِّئَاتِ كَمَا أَنَّكَ  
 مَعْرُضٌ لِلْحَسَنَاتِ . وَمَا يَبْنِي أَنْ تَكْرَهِ الْحَيَاةَ وَفِيهَا رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ  
 عُمَارٌ : أَمَا هَذَا فَنَعَمْ . ثُمَّ نَهَضَ كَأَنَّهُ لَا يَمْدُدُ أَمْلَأَ وَلَا سَقْمًا وَلَا عَنَاءً ،  
 وَكَأَنَّمَا رُدْتُ إِلَيْهِ قُوَّتِي كَأَقْوَى مَا تَكُونُ قُوَّةُ الرِّجَالِ . نَهَضَ وَهُوَ  
 يَقُولُ لِعُمَانٍ وَأَصْحَابِهِ : وَيَحْكُمُونِ ! مَا يَحْبِسُنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ! وَمَضَوْا  
 إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ فَجَلَسُوا مَعَ غَيْرِهِمْ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ  
 إِلَى النَّبِيِّ يَسْمَعُونَ لَهُ وَهُوَ يَعْظِمُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَتَلَوُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ .  
 قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعْتَبَةَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَأَخِيهِ شَيْبَةَ : أَمَا إِنَّكُمَا قَدْ اسْتَنْقَذْتُمَا  
 حُشَاشَةَ عُمَارٍ مِنَ الْمَوْتِ ! وَلَوْ قَدْ كَخْلَيْتُمَا بَيْنِ وَبَيْنِهِ لَوْوُرِي فِي  
 التَّرَابِ ثَلَاثَةٌ لَا إِثْنَانٌ . قَالَ لَعْتَبَةَ : فَقَدْ خَفَفْنَا عَنْكُمَا الْوَزْرُ أَبَا الْحَكْمِ .  
 قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَقَدْ ابْتَسَمَ ثَغْرَهُ عَنْ نَيَّةِ مُنْكَرَةٍ وَرَأَى بَشَعَ : إِنِّي لَا أُحِبُّ

(۱) حَبَطَ عَلَهُ : نَسَدَ وَذَهَبَ سَدِي .

لعدوى أن يموت ! لأن ذلك يُريحه ويُكفي عنه بأى وَيَرِدَ على  
 قلبى ما فيه من الغل<sup>(١)</sup>. وإنما أحب له أن يحيا لأذيقه البأس بجدّاً ،  
 ولأجرعه غصص العذاب شيئاً بعد شيء . ولا واللات والعزى  
 لا تعرضان بيني وبين عمار منذ اليوم إلا أن تريدا إثارة الشر بين  
 حسِّكما وبين مخزوم كلها . فقد كان ياسر لنا حلِيفاً ، وكانت  
 سمية لنا أمة ، وما زلنا نرى عماراً لنا عبداً . قال شيبة . فإن عملك  
 أبا حذيفة قد أعتق عماراً وأخويه . قال أبو جهل : فإن لنا ولاعهم  
 على كل حال . قال عتبة : هو ذاك . وأضمر أبو جهل في نفسه  
 ما أضمر ، وادْخُرَ الله لعمار من الكرامة ما ادْخَرَ ؛ فقد اتصلت  
 فتنة عمار ما أقام بمكة ، وافتَّ أبو جهل في هذه الفتنة حتى جعلها  
 أحاديث . وأول ما قَدَرَ من ذلك أن يحفظ على عمار حياته وحرি�ته  
 فلا يأتي على نفسه ولا يُلقِيه في غيابات السجن ، وإنما يجعله محمد  
 وأصحابه نكالا : يفتنه كلما أحس الحاجة إلى أن يفتنه ، ويعذبه  
 كلما أحس الشوق إلى أن يشهد مشهد العذاب . وكأنه حالف الشيطان  
 على أن يوف عماراً من العذاب ما لم يستطع أن يصُبَّ على أبيه ،  
 وأن يظفر منه بما لم يظفر به من ياسر وسمية ، فيضطره إلى أن يذكر  
 آهاته بخير وأن ينال من محمد صلى الله عليه وسلم . وأعانه الشيطان  
 على ذلك كله ، وأعانه عليه قوم آخرؤن من سفهاء قريش . فترك  
 عماراً آمناً معافٍ في نفسه وببدنه ودينه ، لم ينله بأذى ، ولم يعرض

---

(١) الفل : الحقد والغش .

له بسوء ، حتى استراح عمار من سخته وظن " أنه قد أمنَ الفتنة فكان يغدو على دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيسمع من النبي ويتحدث إليه ، ثم يروح إلى داره وقد اتخد فيها مالم يتخده مسلم قبله في داره : اتخد فيها مسجداً يعبد الله فيه أكثر الليل ، حتى أنزل الله في ذلك قرآنًا : «أَمْنٌ هُوَ قَاتِنُ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» فيما تحدث به ابن عباس.

ولكن أصحاب النبي يجتمعون ذات يوم في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، حتى إذا ارتفع الضحى افتقدوا عماراً بينهم فلم يجدوه . فإذا ذكروا ذلك أنباءهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن عماراً يُعذب في الله . ثم يمر النبي بعد أن يتقدم النهار بمكان في بطحاء مكة فيرى أبا جهل وقد عاد في عمار سيرته الأولى : ناراً موججة . وماء مجتمع في نطع من الأداء ، وعمار قد ألقى بينهما ، وجعل السفهاء من قريش ينشونه بالرماح ويحرقوه بالنار ، وعمار صابر صامت يذكر الله في قلبه ويكتف لسانه عن القول . فإذا رأى النبي ذلك قال : يا نار كوني ببرداً وسلاماً على عمار كما كنت ببرداً وسلاماً على إبراهيم . وقد سلط أبو جهل من النار على عمار أثناء فتنته الطويلة له ما كان خليقاً أن يأتي على نفسه . ولكن الله يقول لعبده : «إِذْ عُنِيْتُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ». وقد دعاه في عمار أحبت

عبدة إليه وأرضاه عنده . والله حكمة بالغة ، ولكل أجل كتاب .

وقد احتمل عمار في ذلك اليوم من العذاب ما يطيقه الرجال  
وما لا يطيقونه ، حتى إذا جنحت الشمس مغربها كف عنه العذاب  
ورُدَّ إلى داره . وأمهله أبو جهل بعد ذلك أياماً طوالاً حتى ظن  
عمار أنه لن يُفتنَ مرة أخرى . ولكن أبياً جهل لم يمهله إلا ليشتت  
عليه في الفتنة ويساعف له العذاب . ويراه النبي ذات يوم وقد  
بلغ الحزن من نفسه وقلبه ما لم يبلغه منها قط ، وعيناه تهلاآن بدموع  
غزار ، فيدنو النبي منه رفيقاً به ، فيكشف دمعه ويمسح عينيه  
ويقول : **وَيَحْكَمُ أَبْنَاءَ سُبْيَةَ** ! أخذتك الكفار فغطوك في الماء  
حتى قلت كذا وكذا ، فإن عادوا فعد ! ولكنهم لم يعودوا من فورهم ،  
ولما انتظروا بعمر حتى أطمعوه في العافية ، ثم أخذوه فعدّبوه وفتحوه ،  
ثم تركوه . وأقبل عمار على النبي خزياناً أسفًا تنهل دموعه غزاراً  
على وجهه **مُرْبِدَ كثيِّبَ** . فلما رأه النبي قال : ما وراءك ؟  
قال عمار وهو يتحبب : شر يا رسول الله ، والله ما تركوني حتى  
ذكرت آلمتهم بخير وذكرتكم بما تكره ويخبون . قال رسول الله :  
فكيف تجد قلبك ؟ قال عمار : أجده مطمئنًا بالإيمان . قال رسول الله :  
الله : فإن عادوا فعد . وأنزل الله في ذلك قرآناً : **«مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ**  
**مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُظْمَنٌ بِالْإِيمَانِ** ولكن **مَنْ**  
**شَرَحَ بِالْكُفَرِ صَدَرَ أَعْلَمُهُمْ** **غَضَبَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة التي كانت تتلاحم طوراً وتتقطع طوراً آخر إلا حين أذن الله للمسلمين في الهجرة إلى أرض الحبشة . فهاجر عمار الهجرة الثانية ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ، فغاش مع رسول الله آمنا سلماً موفراً .

## ١٥

استوثق رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حبيبي يرب : الأوس والخزرج ، وعاهدهم أن يُؤْرُوه وينصروه ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بغي عليه أو أراده بسوء حتى يُبلغ رسالات ربه . وبايده على هذا العهد تقباء<sup>(١)</sup> هذين الحسينين الأوس والخزرج . ثم أذن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد . وكان الإسلام قد سبّهم إلى يرب ، بشّر به من أرسله رسول الله ليبشر به . فكانت الهجرة إلى دار استقرار فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسلاً ، وهو صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قباء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدم عليهم رسول الله . وكانوا في أثناء

(١) تقباء : بمعنى نقيب وهو عريف القوم وسيدم .

ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيموها بعكة . وينظر المسلمين فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالم<sup>١)</sup> بن أبي حذيفة ، فيقدّمونه ليؤمّهم<sup>(١)</sup> في الصلاة ، وفيهم أعلام من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيها بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدّمون سالماً ليؤمّهم في الصلاة . فيكبرون من أمر سالم هذا بادئ الرأى ، ثم لا يلبثون أن يذكروه ويعرفوه . يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلّى بهذه الناجمة من أصحاب محمدَ منْ هاجرَ منهم إلى المدينة ومنْ كان من أهلها ؟ إنه سالم . ألا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليدكروه ، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبياً سحدثأ لا يُحسنَ العربية ولا يفهمها . وما هي إلا أن يسمعوا بهذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى يروا ذلك الصبي الذي منه الضر وظهر عليه المؤس وzed في العرب واليهود جيغاً ، واسترته ثبيتة بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه . ثم يقول بعضهم لبعض : لوعاش سلام بن سبیر لرأى من صبيه ذاك عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذه الناجمة من

---

(١) يؤمّهم : يتقدمهم ويكون لهم إماماً .

أصحاب محمد، يؤمّهم فارسي قد كان بالأمس عبداً؟ ثم يرد بعضهم على بعض رجح هذا الحديث فيقول : إن هؤلاء الناس لشأنَّا . إنهم يُسوّدون العبيد ، ويلغون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وإنما لنرحم قريشاً مما ألمَّ بها ، وإنما لنتذر قريشاً مما فعلت بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنهم قريش ، ولنفيناهم عن أرضنا كما نفتناهم قريش . ولكن هل إلى هنا من سبيل؟ فيقول قائلهم : هيئات ! لقد آمن لهم أولو الباٽس والقوّة من قومنا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يُؤثرون الضيم ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يعجبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس ، ثم هو يؤمّ الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتبعون المهاجرين فيرون فيهـم نفراً غير قليل من الرقيق الذين اعتقـوا ، اعتقـهم إسلامـهم . ثم يتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين ردـت عليهم الحرية بعد أن نشـوا في الرق ، فيروـنـها تقوم على الإخـاء والعدل والـنـصـفة والـمـساـواة . ثم يـتـحدـثـونـ في ذلك إلى المسلمين من قومـهم : فيـقـولـ لهمـ هـؤـلـاءـ : إنـ الإـسـلامـ لاـ يـفـرقـ بـيـنـ الـحـرـ وـالـرـقـيقـ : ولاـ بـيـنـ النـاسـ إـلاـ بـالـتـقـوىـ ، وـبـمـ يـقـدـمـونـ بـيـنـ أـيـدـيـهـمـ مـنـ الـبـرـ وـالـخـيرـ وـعـلـمـ الصـالـحـاتـ . هـنـالـكـ تـطـمـعـ قـلـوبـهـمـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـساـواةـ الـتـيـ لمـ يـسـمـعـواـ بـهـاـ مـنـ قـبـلـ ، وـإـلـىـ هـذـاـ الـعـدـلـ الـذـيـ لمـ يـأـلـفـوهـ ، وـإـذـاـ هـمـ يـعـلـمـونـ إـلـىـ إـلـاسـلـامـ ، ثـمـ يـسـرـعـونـ إـلـيـهـ ، ثـمـ يـحـرـصـونـ عـلـىـ أـنـ يـؤـمـهـمـ سـالـمـ بـنـ

أبي حذيفة ذلك الذي كان عبداً بالأمس فأصبح يوم الأشraf من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله.

## ١٦

بلغ النبي وصاحبه أبو بكر قباء ، ونزل فيها بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار . وقد فرح النبي بهجرته إلى المدينة ، وفرحت المدينة بهجرته إليها ؛ فهى في عيد متصل . والأنصار يستيقون إلى بر النبي وأصحابه من المهاجرين : يؤوونهم ، ويقومون بحاجتهم ، ويطوفون بهما يستطيعون أن يُطوفون به من الطيبات . وقد تقدم النهار وصليت الظهر ، وأقبل رجال من الأنصار فوضعوا بين يدي النبي رطبًا ، وجعل النبي وصاحبه أبو بكر وعمر يصيرون من هذا الرطب . ولهم لئن ذلك وإذا شخص يرفع لهم ، ثم يلدنو منهم ، ثم يسلم عليهم ، ثم يجلسوا إليهم ، وإذا هو صهيب سابق الر يوم إلى الإسلام ، كما قال فيه رسول الله .

وقد أقبل صهيب مجدها مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتي عليه الجوع ، وقد أصابه في طريقه رَمَدٌ ، فهو لا يكاد يرى إلا في مشقة أى مشقة ، وقد ألقى تحية إلى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ، ثم نظر فرأى الرطب فانكب عليه وجعل يأكل منه أكلاً ،

---

(١) يرفع لهم : يظهر من بعيد .

غير رفيق . يقول عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا ترى يا رسول الله إلى صهيب يأكل الرطب وهو رمد؟ فيقول له النبي : أتأكل الرطب وأنت رمد؟ فيقول صهيب وهو يعن في الأكل : إنما آكله بشقّ عيني الذي لم يرمد ؟ فيبتس رسول الله ويضحك القوم . ويضفي صهيب في أكل غير رفيق ، حتى إذا أرضي حاجته إلى الطعام جعل يعاتب أبا بكر فيقول . وعذتني الصحبة ثم تركتني . ثم يعاتب النبي فيقول : ووعذتني يا رسول الله الصحبة ثم تركتني ، والله ما خلصت إليك حتى اشتريت نفسي من قريش بمال أجمع ، وما تركت مكة إلا بمدة من دقيق عجنته بالأبواء وعشت عليه حتى انتهيت إليك . فيجيبه رسول الله : ربع البيع أبا يحيى ! ربع البيع ! ويتزل الله هذه الآية الكريمة : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَبْسَغَاهُ مَرْضَاهُ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » وقد أوجز صهيب قصة هذا البيع الرابع .

وقد كان من أخلاق المسلمين الصادقين ألا يتکبروا ولا يمنوا بإسلامهم ، وقد ثابت قريش بعض الشيء إلى نفسها بعد أن فاتها محمد وأبوبكر ، وجعلت تتبع من بي من أصحاب محمد ، تحبسهم عن الهجرة ، وتُمسكهم في العذاب ، وتفتنهم في دينهم ، وتصدّهم عن سبيل الله . وكان صهيب من الذين حبسهم قريش . يقول له أبو جهل وقد ورم أنفه وذهب به الغيط كل مذهب : أتيتنا صُمُلوكاً حقيرًا لا تملك من الدنيا شيئاً ، فأثربت عندنا وأصبحت

ذا مال ، ثم أنت ت يريد أن تفوتنا بمالك ونفسك إلى محمد وأصحابه ؛  
 قاله صهيب : فإن خليتُ بينكم وبين مالي أتخلونَ بني وبين  
 ما أريد من المجرة ؟ قالوا : نعم ، وقال أبو جهل : ههات ! إن  
 حاجتنا إلى مالك ليست أقل من حاجتنا إلى نفسك ، فلنمسكناكَ  
 في العذاب حتى نأخذ مالك ثم نأتي على نفسك أو تعود من ديننا  
 إلى ما كنت عليه . قال صهيب وفي صوته حزنٌ مرّ : لو عاش  
 عبد الله بن جدعان لما بلغتَ مني ما ترى . قال أبو جهل : سُنْلِحْقُكَ  
 بعبد الله بن جدعان فاشكنا إليه إن شئت . ألسنكم تزعمون أن الناس  
 يحيونَ حياة ثانية بعد حياتهم هذه الأولى ! فالقَ عبد الله بن جدعان  
 هناك إن شئت فاشكنا إليه . قال صهيب : ههات ! لنلقاه ،  
 قد وعدني رسول الله بالجنة ، وهو في النار . قال أبو جهل وقد استثار  
 به الغيط فسطأ على صهيب وضرب في وجهه ضرباً عنيفاً : ألا تسمعون  
 يا معاشر تم ! إن سيدكم عبد الله بن جدعان في النار ، وإن عبده  
 هذا الرومي سيصير إلى الجنة ! ما رأيت كالليوم حقاً ولا خرفاً .  
 ولبث صهيب في حبسه أيامًا لا يُرزقُ من الطعام إلا ما يعصمه  
 من الموت . ولكن الإسلام كان في ذلك الوقت قد فشا في أحرار  
 مكة ورقيقها ، فيحتال بعض أولئك وهؤلا ، وإذا صهيب قد انسلَ  
 من محبسه وركب راحلته وأخذ طريقه إلى المدينة .

وعلمت قريش بأن صهيباً قد انسلَ من محبسه ، وبأنه يوشك  
 أن يفوتها ، فترسل في أثره الخيل ، ويُدركه القوم صهيباً ولم يعنصِ

فِي طَرِيقِهِ إِلَّا قَلِيلًا . فَلَمَّا رَأَهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا ، وَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُوشِكُونَ أَنْ  
يَأْخُذُوهُ وَأَنْ يَرْدُوهُ إِلَى الْفَتْنَةِ وَالْعَذَابِ ، وَقَفَ لَهُمْ ، وَنَثَرَ مَا فِي كَنَانَتِهِ  
مِنَ السَّهَامِ ، وَقَالَ لَهُمْ فِي صَوْتٍ حَازِمٍ مُصْبَمٍ : عَلِمْتُمْ يَا مُعْشَرَ  
قُرَيْشٍ أَنِّي مِنْ أَرْمَاكُمْ رِجْلًا ، وَإِنَّكُمْ وَاللَّهُ لَا تَتَصَلَّوْنَ إِلَيَّ هَنَئِي أَرْمِيكُمْ  
بِكُلِّ مَا بَيْنِ يَدَيِّ مِنْ سَهَامٍ ، ثُمَّ أَضْرِبُكُمْ بِسَيِّقٍ مَا بَيْنِ مَنْهُ شَيْءٍ فِي  
يَدِيِّ . فَاخْتَارُوا بَيْنَ الْمَوْتِ وَبَيْنَ مَالِ أَدْلَكْمُ عَلَيْهِ فَنَأْخُذُونَهُ وَتَخْلُونَ  
بَيْنِ وَبَيْنِ الطَّرِيقِ . وَلَمْ يَطْلُبْ تَفْكِيرَ قُرَيْشٍ وَلَا اِثْمَارَهَا ، وَلَمْ يَعْلَمْ  
أَثْرَوا عَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَالْمَالِ ، فَقَالُوا : قَدْ رَضِيَّنَا ، فَدَلَّنَا عَلَى مَالِكِ .  
فَأَنْبَأُهُمْ بِمَكَانِهِ وَانْصَرَفُوا عَنْهُ . وَمُضِيَّ هُوَ فِي طَرِيقِهِ حَتَّى بَلَغَ رَسُولَ  
اللهِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ مِنَ الْجَهَدِ وَالْكَدْ وَمِنَ الظُّلْمِ وَالْجُحْوَعِ مَا كَادَ يَأْتِيَ عَلَيْهِ .

## ١٧

هَاجَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُسْعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، كَمَا هَاجَرَ إِلَيْهَا غَيْرُهُ  
مِنَ الْمَهَاجِرِينَ ، فَنَزَّلَ عَلَى مُعاذَ بْنَ جَبَلَ أَوْ عَلَى سَعْدَ بْنَ خِيشَمَةَ ،  
يُخْتَلِفُ رُوَاةُ السِّيَرَةِ فِي ذَلِكَ . وَأَقَامَ عَبْدُ اللهِ عِنْدَ مُضِيَّفِهِ حَتَّى  
خَطَّ رَسُولُ اللهِ لِلنَّاسِ دُورَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ ، فَخَطَّ لِبْنَي زُهْرَةَ فِي مُؤْخِرِ  
الْمَسْجِدِ ، وَقَالَ حَتَّى مِنْهُمْ لِلنَّبِيِّ : تَكْبِبْ عَنَا إِبْنَ أَمْ عَبْدَ ، كَأَنَّهُمْ  
كَرِهُوْنَا نَزْوَلَهُ بِيَنْهُمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلَمْ  
يَبْعَثْنَا اللَّهُ إِذْنًا ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِسُ قَوْمًا لَا يُعْطِيُ الْمُضْعِيفَ مِنْهُمْ

حقه . ثم أنزله منزله بينهم كريماً .

ولم يكدر عبد الله يستقر في المدينة حتى كان ألزم الناس  
لنبي وأشدّهم اتصالاً به في حياته العامة والخاصة، يمحجهه<sup>(١)</sup> إذا دخل  
داره ، ويُسعي بين يديه إذا خرج منها ، وكان أصحاب الحديث  
يقولون : إن ابن مسعود كان صاحب سواد رسول الله ووساده ونعليه  
وطهوره .. كان أثناء الإقامة يقوم على حجرته حاجياً ، لا يُختنق  
النبي عليه من سر إلا ما يؤمر بالخفائه . فإذا هم النبي أن يخرج  
أليسه نعليه ومشي بين يديه بالعصا ، حتى إذا جلس نزع نعليه  
فأدخلهما في ذراعه وأعطيه العصا ، فإذا أراد أن يقوم أليسه بعليه  
وأخذ منه العصا فشى بها بين يديه حتى يبلغ الحجرة فينحني ستارها ،  
ويدخل قبل النبي ، حتى إذا دخلها النبي نزع نعليه وخرج فقام  
 أمام الستر حاجياً . فإذا خرج النبي في السفر فابن مسعود صاحب  
 وساده إذا نام ، وصاحب طهوره كلما أراد الموضوع . وكان النبي  
 إذا أراد أن يغتسل في بعض سفره قام ابن مسعود من دونه يسْتَرِه ،  
 حتى لم يشك كثير من أصحاب النبي أن ابن مسعود كان من أهل  
 بيته . فليس غريباً إذن أن يكون أحفظ الناس للفقرآن وأكثرهم سعاماً  
 عن النبي . ثم أصبح بعد النبي أكثر الناس تعلماً للفقرآن وأقلهم رواية  
 لحديث النبي ، يتلّم من ذلك ويحافظ أشد الحفوف . وكان النبي  
 يُؤثِّره ويُكَبِّره ويُدَافِع عنه ويُشيد به ، حتى قال ذات يوم : لو

---

(١) يمحجه : يقوم حاجياً على بابه .

كنت مُؤمِّراً أحداً دون شوري المسلمين لأُمَّرَت ابن أمَّ عبد . وأمره ذات يوم أن يصعد في شجرة فيجيئ له من ثُمرها ، فلما جعل يصعد في الشجرة نظر أصحاب النبي إلى دقة ساقه وحوشتها<sup>(١)</sup> فضحكوا . قال رسول الله : مَّن تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقه . قال رسول الله : لم أُنقل في الميزان من أحد . وظل صاحب سر النبي وساده وطهوره ، حتى إذا اختار الله النبي بلواره وخرجت جيوش المسلمين غازية إلى الشام خرج فيها غازياً ، كأن مقامه بالمدينة قد شق عليه بعد أن تُوفِّيَ خليله ، وأقام بمحصن ما شاء الله أن يقيم ، حتى تحدَّرَه<sup>(٢)</sup> عبر إلى الكوفة .

## ٦٨

أقبل النذير فلا قلوب قريش ذُعراً حين أنبأها بأن أبا مفیان يستغیثها ويستغفر لها<sup>(٣)</sup> ويعلمها أنَّ مُحَمَّداً قد خرج بأصحابه من المدينة يستعرض العبر . ولم يتقدَّم النهار حتى كانت قريش قد تفرَّتْ وجعلت تجهيز جنهازها للحرب . يتنافسُ أشرافها في ذلك أى تناقض ، ويستيقون<sup>(٤)</sup> إليه أى استياء . واستيقن أبو جهل أن قد جاء الوقت الذي كان

(١) حبشت الساق : دقت .

(٢) سدره : أنزله .

(٣) يستغفرونها : يستغفلاً ويستغفرواً .

(٤) يستيقنون : يسرعون .

ينتظره منذ أعوام طوال ، وأن قريشاً لن تخرج لتحقى العبر فحسب ،  
 وإنما تخرج لتسحق محمدًا وأصحابه وتزيف منهم مكة ويُثرب جميعاً .  
 وقد جاء النبأ بعد أن خرجت قريش بأن أبي سفيان قد ساحل بالعير<sup>(١)</sup>  
 حتى أحرزواها<sup>(٢)</sup> من محمد وأصحابه ، وأن قريشاً تستطيع أن تعود إلى  
 مكة فتنعم فيها بالسلم والعافية : ولكن قريشاً أبى أن تعود كما خرجت  
 وزين لها الشيطان بلسان أبي جهل أن تخضى حتى تأتى بدرًا فتنزل  
 بها متصرة مظيرة للعرب أنها ما زالت قريشاً صاحبة العز والجذد  
 والسؤدد . ثم تنحر فتطعم وتشرب وتطرب وتشrike العرب في طعامها وشرابها  
 وطربها وطوها ، ويعلم محمد وأصحابه أن كلمة هيل<sup>(٣)</sup> ما زالت حالية ،  
 وأن عز قريش لا يرام . وخرج سهيل بن عمرو فيمن خرج من  
 أشراف قريش ، وقد جعل إلى ابنه عبد الله ماله وحلانه<sup>(٤)</sup> يسعى بها  
 بين يديه . وكان سهيل قد قُتِنَ في دينه حين عاد من هجرته إلى  
 أرض الحبشة ، أخذه أبوه فأوثقه وجسده وفنه حتى استيقن أنه  
 قد عاد إلى دين آبائه وأثر قريشاً على محمد . فلما خرج مع الملا  
 من قريش قدم ابنه بين يديه فخوراً به معتقداً عليه . وتراءى  
 الجماعان بيدر ، ونظرت قريش فإذا محمد في قلة من أصحابه ، فامتلأ

(١) ساحل بالعير : ذهب بها إلى ساحل البحر .

(٢) أحرزواها : صنانياً وحفظتها .

(٣) هيل : صنم كان في الكعبة .

(٤) الحلان : ما يحمل عليه من التواب في المبة خاصة .

عجباً وتيهاً . ونظر النبي فإذا قريش قد أقبلت بقضيتها وقضيضتها<sup>(١)</sup> ، فاستتجزَ الله وعده واستنزلَ نصرَه وتصرعَ إليه في أن يُثْبِت قلوب المؤمنين . وتدانى الجماعان .

ولكن قريشاً تنظر فتري عجباً ، ولكن المسلمين ينظرون فيرون عجباً : ترى قريش فتى من أقوى شبابها قوة وأنصرهم نصرة وأشدتهم بأساً ، يخرج من صفتها وينحاز إلى محمد . ويروي المسلمون والمهاجرون منهم خاصة صديقاً لهم قد عرفوه وأحبوه ، ثم حزنوا عليه حين ظنوا ، كما ظنت قريش ، أنه قد عاد إلى دين آبائه . وتساءل قريش عن هذا الفتى ، وتساءل كثرة المسلمين عن هذا الفتى ، ثم يعرف أولئك وهؤلاء أنه عبد الله بن سهيل بن عمرو ، خد ع المشركين عن أنفسهم وعن نفسه ، وانتفع بما أنزل الله في أمر عمار بن ياسر : « مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِإِيمَانٍ ، وَلَكُنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفَّارِ صَدْرًا فَعَلِيهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

فهو لم يكفر بقلبه ، ولم يشرح بالكفر صدرأ ، ولكنه وجد قلبه كما وجد عمار قلبه حين فتنته قريش مطمئناً بالإيمان . وقد قال النبي لعمار : إن عادوا فعد ، وفهم عبد الله بن سهيل آية القرآن وحديث النبي على وجههما . فلما أحس الفتنة من أبيه أظهر له ولقريش ما أرضاهما ، وأخفي عليه وعلى قريش ما أرضى الله . وهذا هو ذا

(١) أقبلوا بقضيتم وقضيتمهم : جيدهم .

يخرج من صنوف قومه وينحاز إلى صف المسلمين ، ثم يسعى حتى يبلغ النبي فيهدي إليه سلامه ويتلئ منه بركته . ثم يخرج إلى أصحابه من المهاجرين فيزحف معهم لقتال قريش وفيهم أبوه . ويلاقى أثناء الرحل أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة زوج أخته سهلة ، فإذا قص عليه قصته أثني أبو حذيفة عليه وقال خيراً . ولم يزد على ذلك شيئاً . وقد تداني الجماعان . حتى لم يبق إلى تدانيهما سبيل إلا بسيف أو رمح . ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، والمسلمون ينظرون فيرون عجباً : يرون فتى يصلو في الميدان بين الصفين يدعوا عتبة بن ربيعة للمبارزة . ويخرج عتبة للفتى ، ولكنه لا يكاد يراه حتى ينصرف عنه ، وقد ملأ الفيظ قلوب قريش وملأ الإعجاب قلوب المسلمين : رأى أولئك وهؤلاء أبا حذيفة يدعوا أباء للمبارزة . ويبلغ هند بنت عتبة وزوج أبي سفيان أن أباها وأنخاهما الوليد وعمها شيبة قتلوا ، وأن أنخاهما أبا حذيفة قد دعا أباء لقتال ، فتقول في هذا كله فتكبر القول ، وتهجو أنخاهما أبا حذيفة بهذين البيتين :

الأحوال الأئل المشوش طائره<sup>(١)</sup>      أبو حذيفة شر الناس في الدين  
 أما شكرت أبا رباك من صغير<sup>(٢)</sup>      حتى شببت شباباً غير محجون

وشهد الوعة فيمن شهدها من المهاجرين عبد الله بن مسعود ،  
 وكان خفيفاً نحيفاً ضئيل الشخص قليل اللحم موفور النشاط

(١) الأئل : من تراكمت أسنانه إسداها على الأخرى . المشوش طائره : المنبعون الطلمه .

(٢) محجون : معروج .

سرير الحركة ، لا يكاد يُرى في مكان حتى يُرى في مكان غيره ، شأنه في قريش المحاربة كشأنه في قريش بمكة حين كانت تفتّن المسلمين ، وهو يعود هنا ويعدو هناك ، ويطير في الميدان من مكان إلى مكان . وإنه لمني بعض ذلك وإذا هو يرى أبني عفراه قد صرّعا أبو جهل وأثباته <sup>(١)</sup> ، فيسرع إليه ابن مسعود ويدركه وفيه رمق يُتيح له أن يرى وأن يسمع وأن يعقل ، ويتبع له أن يتكلم في بعض الجهد . فيجلس ابن مسعود على صدره وهو يقول : ها قد أخراك الله يا عدو الله ! قال أبو جهل في صوته المتهاك المتقطع : ها أنت ذا يا راعي الغنم ! لقد ارتقيت مرقني صعباً . قال ابن مسعود : لقد أخراك الله بما قدمت إلى المسلمين من شر ، فذوق عذاب الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد بأساً وأعظم تنكيلاً . ثم يحتز رأسه ، ثم يمضى خفيناً مسرعاً ، فينبئ النبي بمقتل أبي جهل . قال النبي : الله الذي لا إله غيره ! قال ابن مسعود : الله الذي لا إله غيره فكبير النبي وكبير من تحوله من المسلمين . ووقف النبي بعد ساعة على صرّاعي قريش وقد ألقوا في القليب فقال : « يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني رب حقاً ». قال بعض أصحاب النبي : إنهم موْقِي يا رسول الله ! قال : « إنهم ليسمعون كما تسمعون إلا أنهم لا ينطقون »

(١) أثباته : جراحه جراحة لا يشعرك منها ولا يقوم بعلها .

كان بلال من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان أول من أذن في الإسلام ، وقد جعل النبي الأذان إليه حين نظمت جماعة المسلمين . وليس من شك في أن قد كان بين العرب من المهاجرين والأنصار من كان أندى صوتاً من بلال ، وربما كان بينهم كذلك من كان أفعص منه لغة وأنفع منه منطقاً ! ولكن الله يُؤْتِي فضله من يشاء . وقد عرف رسول الله بلال سبقه إلى الإسلام وسبقه إلى الأذان ، فجعله صاحبَ أذانه ما أقام في المدينة ، فإذا غاب عنها أذن مكاهنه أبو محدورة ، فإذا غاب أبو محدورة وبلال أذن مكاهنها عمرو بن أم مكتوم . وكان بلال يتمحري الوقت بالأذان فلا يؤخره ، فإذا فرغ من أذانه أقبل حتى وقف على باب رسول الله ليؤذنه ، وقال : حسبي على الصلاة . حسبي على الفلاح . الصلاة يا رسول الله . ثم تنسحب وقام بانتظار . حتى إذا خرج رسول الله ورأه بلال "أخذ في الإقامة . وكان بلال يسعى بالعنزة<sup>(١)</sup> بين يدي رسول الله في العيددين وفي الاستسقاء ، حتى إذا بلغ المصلى رَكَزَ العنزة بين يدي رسول الله فصلَّى إلَيْها .

وكان النبي يحب بلالاً أشد الحب ويُكَبِّرُ من شأنه ، ويريد

(١) العنزة هنا : ريح صفيف فيه زج ( حديدة في أسفله يركز بها ) .

أن يُكَبِّر الناس من شأنه . جاءته أسرة عربية تطلب إليه أن يزورج  
ابنتها من رجل . عربي سمه ، فقال لهم النبي : فَأَيْنَ أَنْتُمْ عَنْ بَلَالِ ؟  
فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَاكَ وَلَمْ يَقُولُوا شَيْئاً . ثُمَّ أَقْبَلُوا مِنْ غَدِ  
عَلَى النَّبِيِّ فَطَلَبُوا إِلَيْهِ مَا طَلَبُوا أَمْسِ . قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ أَمْسِ :  
أَيْنَ أَنْتُمْ عَنْ بَلَالِ ؟ فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَقُولُوا شَيْئاً . ثُمَّ أَقْبَلُوا  
مِنْ الْغَدِ فَطَلَبُوا إِلَيْهِ مَا طَلَبُوا إِلَيْهِ أَمْسَ وَأُولَئِكَ مِنْ أَمْسِ ، قَالَ لَهُمْ  
مِثْلَ مَا قَالَ فِي الْمَرْأَةِ الْأُولَى وَفِي الْثَّانِيَةِ : أَيْنَ أَنْتُمْ عَنْ بَلَالِ ؟ ثُمَّ زَادَ :  
أَيْنَ أَنْتُمْ عَنْ رِجْلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ فَزَوْجُوهُ . وَعَرَفَ النَّاسُ أَنَّ رَسُولَ  
لَا يُمَايِزُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْتَّقْوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَمَا يَقْدِمُونَ  
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ الْحَسَنَاتِ . وَأَكْبَرُ النَّاسَ بِلَالاً كَمَا أَكْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ،  
حَتَّىٰ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابَ يَقُولُ : أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا .  
يُوَدِّ بِلَالاً . وَكَانَ هَذَا كَلْهَ خَلِيقاً أَنْ يُرْضِيَ بِلَالاً عَنْ نَفْسِهِ شَيْئاً ،  
وَلَكِنْ بِلَالاً لَمْ يُرْضِ عَنْ نَفْسِهِ قَطُّ ، وَإِنَّمَا كَانَ صَادِقَ التَّوَاضِعِ  
مُسْتَصْغِراً لِنَفْسِهِ مِمَّا يَفْعَلُ . أَقْبَلَ مَرَةً يُوَدِّ بِلَالاً الْأَذَانَ ، فَأَحْسَنَ  
شَيْئاً مِنْ رَضَا عَنْ نَفْسِهِ ، فَغَاظَهُ ذَلِكَ وَأَنْطَقَهُ بِكَلَامٍ كَانَ يُوَدِّ أَنْ يَكُونَ  
شَعْرًا فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، أَصَابَ الْوَزْنَ وَأَنْخَطَ الْفَافِيَةَ :

ما بِلَالَ ثَكْلَتَهُ أَمْهُ وَابْلَلَ مِنْ تَضْحِي دَمْ جَبِينَ

وَكَانَ النَّاسُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَأْتُونَ بِلَالاً فَيَتَحَدَّثُونَ إِلَيْهِ وَيَذَكِّرُونَ  
مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنِ الْفَضْلِ وَمَا اخْتَصَهُ بِهِ مِنِ الْكَرَامَةِ ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى  
أَنْ يَقُولَ : إِنَّمَا أَنَا حَبِّشٌ وَقَدْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ عَبْدًا .

وأقبل المسلمون يوم الفتح فدخلوا مكة ظافرين ، وثبتت قريش إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، وعفا رسول الله عن مسيئتها ، وقال لهم مقالة يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحيم ». وحطم الأصنام وطهر الكعبة وأخلصها لله عز وجل ، ثم قال لبلال : اصعد فأذن على ظهر الكعبة . وصعد بلال فأذن على ظهر الكعبة والحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدان ؛ يقول الحارث بن هشام لنفسه في أعماق نفسه : كيف لو رأى أخي عمرو بن هشام بلا لا هذا قاعداً على ظهر الكعبة ؟ ويقول صفوان بن أمية لضميره في أعماق ضميره : كيف لو رأى أبي أمية بن خلف هذا العبد الذي طلما عذبه وأدبه قاعداً على ظهر الكعبة ؟ ولو استطاع . الرجالان لاكتفي كلُّ مهما بالحديث إلى نفسه ، ولكنهما يربان الكعبة وقد زال عنها هبل وزالت اللاتُ والعزى ومناة الثالثة الأخرى وقام على ظهرها حبشي يعلن دين محمد إلى قوم طلما ساربوا محمداً وأصحابه ، وليس منهم الآن إلا من يستجيب لدعوة محمد راضياً أو كارهاً .

ينظر الرجالان إلى الكعبة وقد ظهرت من الأوثان ، وإلى هذا الحبشي القائم على ظهرها ، فلا يملك أحدهما إلا أن يهمس في أذن صاحبه : ألا ترى إلى هذا الحبشي ؟ قال ذلك في صوت تملؤه الحسرة . ويجيئه صاحبه في صوت خافت تشيع فيه السخرية المرة : إنَّ يَكْرَهُهُ اللَّهُ يُغَيِّرُهُ . وبلال قائم على ظهر الكعبة يرفع صوته الندى قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله .

وأذن بلال في المدينة لل المسلمين ، فاستجابت له قلوبهم مخزونه ،  
 وأغوثت جماعتهم في تحبيب مرار ترجمة له المسجد حين قال بلال  
 وصوته يكاد يختبس في حلقة « وأشهد أن محمداً رسول الله ». وذلك  
 لأن النبي كان روحه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وكان جسمه  
 لم يعبر بعد . فلما دفن صلى الله عليه وسلم وتمت البيعة  
 لأبي بكر ، قام إليه بلال فقال : أى خليفة رسول الله ! إن كنت  
 قد اشتريتني لنفسك فأمسكني ، وإن كنت قد اشتريتني الله فذرني  
 واعمل الله . قال أبو بكر : ما شاء يا بلال ؟ قال بلال : إن سمعت  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن أفضل عمل العبد جهاده  
 في سبيل الله ، فخلّ بيتي وبين الجهاد . وأراد أبو بكر أن يردّه  
 عن نيته تلك فلم يستطع . وانصرف بلال إلى الشام فرابط <sup>(١)</sup> فيها غازياً  
 حتى توفي في دمشق عام عشرين .

## ٢١

وأقبل عمار بن ياسر إلى المدينة مهاجراً فنزل على مبشر بن  
 عبد المندر ، وأخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته وبين  
 حذيفة بن اليمان . وأقام عمار عند مضيفه مبشر حتى أقطعه  
 رسول الله موضع داره ، وحتى بناتها ثم انتقل إليها . وكان عطف  
 النبي على عمار شديداً ووجه له قويتاً عيناً . وكان عمار يحس

(١) رابط الجيش : لازم تخوم العدو .

هذا الحب وذلك العطف ، فيدقعه هذا الإحساس إلى تحمس في الإسلام كان يمتاز به من أكثر المسلمين ، حتى كانت الأنوار تتوجه إليه ، وكانت النفوس كثيراً ما تفكّر فيه ، وربما لمجت به بعض الألسنة أحياناً . وكان عمار يتحامل على نفسه ويلأخذها من الجهد في سبيل الله بأكثر ما كانت عامة المسلمين تأخذ به أنفسها . أخذ رسول الله في بناء مسجده واشترك المسلمين في هذا البناء ، يرون اشتراكهم فيه خيراً لأنفسهم ويرأّ بها ، ولم يكن رسول الله أقلّهم جهداً ولا أيسّر لهم عناء في هذا البناء ، فكان يحمل معهم اللبن<sup>(١)</sup> حتى يغبر وجهه الكريم وحتى يكثّر عليه التراب . وكان المسلمون يحملون اللبن لبنيتة لبناء إلا عمارة فكان يحمل لبنيتتين لبنيتتين ، وكان ينفق في ذلك من النشاط والمرح والرضا ما كان يملأ قلوب المسلمين إعجاباً به ، وقلوب المنافقين حقداً عليه . وكان يحمل لبنياته وهو يتغنى : « نحن المسلمين نبني المساجداً » . وربما رق قلب رسول الله لعمار فقبل عليه ويرفق به ويتطهّف له ويمسح عن وجهه وصدره التراب ، حتى قال له ذات يوم وهو يمسح التراب عن وجهه : « وَيَسْلُكْ أَبْنَى سُبْيَةَ ؟ تقتلث الفتنة الباغية ! » . ووّقعت هذه الكلمة من قلوب المسلمين موقعاً غريباً ، فنفّشت في ضمائرهم وبلاّثت نفوسهم هيبة لعمار وإكباراً له . ولم يقل النبي هذه الكلمة لعمار مرّة واحدة ، وإنما قالها له

---

(١) اللبن : الطوب النيء .

فيما يظهر غيرَ مرة : قالها له أثناء بناء المسجد ، وقاما له بعد سنتين حين احتضر الحنقد . وكان بلاء عمارٌ في حفر الحنقد مُضيّعاً فـأـكـبـلـاـئـهـ فـيـ بـنـاءـ الـمـسـجـدـ . وـكـانـ النـبـيـ يـعـمـلـ مـعـ أـصـحـابـهـ فـيـ حـفـرـ الـخـنـقـ كـأـجـدـ مـنـهـ يـحـمـلـ التـرـابـ وـالـحـجـارـةـ وـيـتـغـيـرـ وـهـمـ يـرـدـونـ عـلـيـهـ :

« لا هم إِنَّ الْعِيشَ عِيشُ الْآخِرَةِ ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمَهَاجِرَةِ ».

وأقبل مقبل فزعم أن حائطاً سقط على عمار فمات ، فقال

النبي : لم يمت عمار . ثم لقي عماراً فقال له : « وَيَحْكُمُ ابْنَ سُمِّيَّةَ ؛ تَقْتُلُكَ الْفَتَّةُ الْبَاغِيَةُ ! » وَمَلَأَتْ هَذِهِ الْكَلْمَةُ قَلْبَ عَمَارٍ يَقِيْنًا وَثَقَةً وَحَرَصًا عَلَى أَنْ يَعْمَلْ صَالِحًا مَا وَسَعَهُ الْعَمَلُ ، وَعَلَى أَنْ يَجْتَنِبَ الْفَتَّةَ مَا وَسَعَهُ اجْتِنَابُهَا . وَكَانَ يَطْبِيلُ الصَّمْتَ وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا حِينَ لَا يَكُونُ مِنَ الْكَلَامِ بُدُّ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَقْطَعُ صَمْتَهُ بِهَذِهِ الْكَلْمَاتِ : عَائِدٌ بِاللَّهِ مِنْ فَتَّةٍ ! عَائِدٌ بِاللَّهِ مِنْ فَتَّةٍ ! ثُمَّ يَعُودُ إِلَى صَمْتِهِ الْعَمِيقِ .

وأقبل خالد بن الوليد ذات يوم بعد أن أسلم ، فكان بينه

وبيه عمار شيءٌ من خصومة ، فأغلظ خالد لumar في القول - وَكَانَهُ ذَكْرُ سُمِّيَّةَ الَّتِي كَانَتْ أَمَةً لِعَمِّهِ أَبِي حَذِيفَةَ ، وَيَا سِرَ الذِّي كَانَ حَلِيفًا لِعَمِّهِ أَبِي حَذِيفَةَ . وَكَانَهُ ذَكْرُ عَمَارًا بِأَنَّهُ عَتِيقٌ عَمِّ أَبِي حَذِيفَةَ ، وَكَانَتْ فِي خَالِدٍ بَقِيَّةً مِنْ كَبْرِيَاءٍ مُخْزُومٍ ، وَكَانَ فِيهِ فَضْلٌ مِنْ صَبَّلَفَ<sup>(۱)</sup> بِقَرِيشٍ - فَجَاءَ عَمَارٌ إِلَيْهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(۱) لَامٌ : اللَّهُمَّ ، يَا اللَّهُمَّ

(۲) صَبَّلَفٌ : تَكْبُرٌ وَتَمْلِحٌ وَادْعَاءٌ .

وأما عمار فقد رأه الناس قائماً على صخرة وقد قطعت أذنه فهى تتذبذب ، وهو يصبح بال المسلمين : إلى أيها المسلمين أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرون ! وما زال بهم يدعوه وقد ثبت على صخرته لا يزول حتى ثاب إليه المسلمين وأنزل الله عليهم نصره . ويبلغ أبا بكر موت سالم ، فيدفع تراثه إلى صاحبة ولائه ثبيتة ، فترده وتقول : سيسته لله عز وجل . فإذا ولَّ عمر الخلافة دفع تراث سالم مرة أخرى إلى ثبيتة صاحبة ولائه ، فترده وتقول : سيسته لله عز وجل . ويضنه عمر في بيت المال .

وأقبل أبو بكر في أثناء خلافته حاجاً . فلما دخل مكة جاءه سهيل بن عمرو مسلماً ، فعزاه أبو بكر بابنه عبد الله الذى قتل فى الميادة شهيداً . قال سهيل : لقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يشفع الشهيد لسبعين من أهله ! فأنا أرجو لا يبدأ ابني بأحد قبلى .

## ٢٢

لم يكدر عمر يهضم بأمور المسلمين بعد صاحبه حتى مضى فى سياسة الفتح التي ابتدأها من قبله . لم يهمن ولم يضعف ، ولم يتع لأحد من الناس أن يهن أو يضعف ، وإنما روى العالم القديم المتحضر بثقل العرب ، فلم يثبت له العالم المتحضر إلا ربيعاً تداعى ثم انهار . وكان عمر لا ينام ولا ينير ، وإنما كان يقظاً دائماً ، موقظاً دائماً . عملاً دائماً ، دافعاً غيره إلى العمل . وقد فتح عمر للذين أسلموا بأنحصاره من عامة العرب ومن خاصة قريش أبواب

عليه وسلم يشكو خالداً . وأقبل خالد أثناء ذلك فجعل يقول لumar  
وumar ساكت والنبي مطرق . ثم رفع النبي رأسه وقال في صوته الوادع  
العذب الذي ينفذ إلى القلوب : « من عادى عماراً فقد عاداني » :  
فخرج عمار كأرضى ما يخرج الناس ، وخرج خالداً مهوماً مغتماً  
كثيب النفس . فلم يسترح حتى أرضى عماراً ووثق بأنه عفا له عما  
أسلف إليه من سوء .

٢١

عادت العرب إلى كفرها بعد وفاة النبي ، وجد أبو بكر  
ووجد معه الأنصار والمهاجرين في ردمهم إلى الإسلام طائعين أو  
كارهين . وخرج خالد بن الوليد بجيش أبي بكر إلى الميامدة يقاتل  
مُسليمة ويَرَدَّ بن حنيفة إلى الإسلام . والتقي المسلمين وأهل  
الردة ، فكانت بيهم موقعة من أشد ما عرف المسلمون من الواقع  
وكان في الجيش أربعة نفر كلهم شهد بدرًا وأحداً والمشاهد كلها  
مع رسول الله : عمار بن ياسر ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ،  
وابنه قديمًا ومولاه حديثاً سالم بن سالم ، وأخوه امرأته عبد الله بن  
سليمان بن عمرو . وقد انكشف المسلمين وكادت الدائرة تدور  
 عليهم ، ولكن الناس يرون هؤلاء التفر قديماً ثبتوا في أماكنهم لا يرجمون .  
فأما سالم فجعل يصبح بالناس : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله  
ثم احتضر حفراً فأثبت فيها قدميه ، وصنع أبو حذيفة وعبد الله  
بن سليمان صنيعه فاستشهدوا جميعاً في أماكنهم .

الجهاد على مصاريعها ، وألقي في روعهم جميعاً أن من فاته ثواب الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يشهد معه بدرأ ولا أحدها ولا الخندق ولا غيرها من المشاهد ، فإن أمامة ملك الروم وفارس يستطيع أن يستدرك فيما ما فاته من حسن البلاء . وأبي بلاء أحسن من أن يكون الرجل قد تقدمت به السن ، والرجل لم يكدر يخرج من شبابه ، والفتى لم يكدر ينضو عنه ثوب الصبا ، وسيلة إلى تحقيق وعد الله عز وجل وتصديق قوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُكِنْ لَهُمْ ذِيْنَمِنْ دِيْنِهِمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيَبْدِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَ نَحْنُ لَا يُشْرِكُونَ بِنَا شَيْئًا » .

لقد اندفعت العرب حين دفعها عمر ، فلم تجد أمامها صعوبة إلا قهرتها ، ولا عقبة إلا دللتها ، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء . ولم يكن أصحاب رسول الله والذين شهدوا معه المشاهد منهم خاصة أقل اندفاعاً إلى الجهاد واستباقاً إلى الغزو من الذين أسلموا بأخرس . ولم يكن عمر يصد هم عن ذلك أو يردهم عنه ، وإنما كان يخلو بينهم وبين ثواب الله يطلبونه ما وجدوا به سبيلاً ، إلا أولئك الأشراف من قريش ، فإنه أمسكهم في المدينة ، لم يأذن لهم بالخروج ، خاف من عامتهم على الناس ، ونحاف على خاصتهم من الفتنية ، وكان أشراف الصحابة من قريش إذا أراد أحدهم أن يخرج للجهاد أبي عليه عمر ، وقال : قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجزئك

أما المستضعون من أصحاب النبي من قريش ومن غير قريش

فلم يخف عمر منهم ، ولم يخف عليهم الفتنة ، فخلت بينهم وبين ما أرادوا من الجهاد وما ابتنوا من فضل الله . وكذلك انطلق بلايل أبو ذر وابن مسعود إلى الشام ، وانطلق غيرهم إلى العراق . وأقام في المدينة من أمسكه ضعف الجسم أو أمسكته سياسة عمر . وأقبل خباب بن الأرت ذات يوم مسلماً على عمر ومستاذنا في أكبر الظن في اللحاق بجيشه من جيوش العراق ، فيهش له عمر ويستدنه ويجلسه على مكتبه ويقول : ما على الأرض أحد أحق منه بهذا المجلس إلا رجلاً واحداً . فيقول خباب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : بلايل . وروى بعضهم أنه قال : عمار بن ياسر . قال خباب : ما هو بأحق مني ، لقد كان له من قريش من يمنعه ويقوم دونه ، فأماماً أنا فلم يكن لي أحد ، ولقد رأيتهم ذات يوم أخذوني ثم أودعوا لي ناراً فسلقوفي فيها ، ثم يُقبل رجل فيضع رجله على صدرى ، فوالله ما انتقيت برد الأرض إلا بظهرى . ثم يرفع رداءه ليرى عمر ما بيقي في ظهره من آثار العذاب . وينظر عمر ، وينظر من حضر من المسلمين ، فيرون شرّاً مروعاً : يرون أن ظهره قد برص . لم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله بدرًا وأحدًا والحندق والشاهد كلها . ثم لم يكفه ذلك حتى أبا إلأ أن يجاهد ، كأنه رأى أنه لم يلق في سبيل الله مع هذا كله بما ينبغي أن يلقى من الجهد والمشقة والعناء . وقد انحدر إلى العراق فغزا مع الغازين ، وجاهد مع المجاهدين ، ورابط في الكوفة حتى أدركته الشيخوخة

واشتد عليه الداء ، وأقبل نفر من أصحاب رسول الله يعودونه ، وقد اكتوى في بطنه سبع كيات ، وبرح به الألم كل تبريح . فلما دخلوا عليه رأوا رجلاً مُرَوِّعاً قد ملك الخوف والحزن عليه أمره . يقول لعواده من أصحاب النبي : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاناً أن نتمنى الموت لمنيتنا . ثم يسكت صوته ويسكن جسمه وتنهل دموعه على وجهه غزاراً .

فيعزّيه عواده من أصحاب النبي يقولون له : أبشر أبا عبد الله ؛ إخوانك فلان وفلان ، تقدم عليهم غداً . فيغرق في البكاء حتى ما يستطيع كلاماً ، ثم يشوب إليه شيء من هدوء فيقول في صوته الضعيف النحيف المتقطع : أما إنه ليس بي جزع ، ولكن ذكرتوني أقواماً وسيتموهم لي إخواناً ، وإن أولئك مضمواً بأجرهم كما هي ، وإن أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أتينا بعدهم . ثم تأخذه غشية تكشف لسانه عن النطق حتى يُظن أنه قد قضى أو كاد . ثم يُرَدَّ إليه شيء من حياة ، فينظر فإذا كفنه قد أحضر ، وإذا هو من قباطي ، فيسكي ويقول : لكن حزنة عم النبي صلى الله عليه وسلم كفن في بردة<sup>(١)</sup> ، فإذا مدت على قدميه قلصات<sup>(٢)</sup> عن رأسه ، وإذا مدت على رأسه قلصات عن قدميه ، حتى يجعل عليه إذْخر<sup>(٢)</sup> . ولقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن في ناحية

(١) قلصات : ارتقت .

(٢) الإذْخر : الشيش الأخضر ، وحشيش طيب الريح .

بيتى في تابُوت<sup>(١)</sup> لأربعين ألف واف ، ولقد خشيتُ أن تكون قد عجلَت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا . يقول بعض أولئك الرهط البعض حين انصرفوا عنه : ألا ترون إلى خباب على كثرة ما احتمل وعلى كثرة ما عمل يخشى أن يلتئم الله فقيراً ليس له كبير حظ من الصالحات ! فيقول قائلهم : وما يربّكم من ذلك ؟ ألم تعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمرأة التي زعمت أن الله قد أكرم عثمان بن مظعون بعد موته : « وما يُدرِيك أن الله قد أكرمه ! إنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ! » .

ولم يمنع المرض الموجع والا الحزن اللاذع ولا الحروف من لقاء الله -خباباً- من أن يكون معلماً ناصحاً للمسلمين حتى في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . كان الناس يدفنون موتاهم في جبابيرهم قريباً من دورهم فيقول خباب لابنه حين أحسن الموت : يابنى إذا أنا مت فادفني بهذا الظهر؛ فإن الناس إن رأوا ذلك قالوا صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن بظهر الكوفة ، ثم دفنا موتاهم خارج المدينة ؛

ومات خباب وصلى عليه على رحمه الله ، ودُفِنَ بظاهر الكوفة .

فُدُنَ النَّاسُ مَوْتَاهُمْ حَوْلَ قَبْرِهِ .

٢٣

مضى صهيب بعد الإسلام على ما كان يمضي عليه من سيرته في الجحود والكرم قبل أن يُسلم . وكثير المال عنده بعد الفتوح ،

---

(١) التابوت : الصندوق .

فَكُثُرَ عَطَاوَهُ وَسْخَاوَهُ ، حَتَّى تَحْدُثْ بِأَمْرِهِ النَّاسُ . وَكَانَ لَا يَسْتَقْبِلُ  
لِيَلَهُ إِلَّا جَمَعَ خَلْقًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا حَوْلَ هَامَ كَثِيرٌ . فَجَعَلَ النَّاسَ  
يَذْكُرُونَ كَرَمَ أَبَيْ يَحْيَى وَسَخَاءَ أَبَيْ يَحْيَى وَبَرَّ أَبَيْ يَحْيَى . وَسَمِعَ ذَلِكَ  
عُمَرُ فَقَالَ : مَنْ أَبُو يَحْيَى هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ؟ قَالُوا : صَهِيبٌ .  
قَالَ : لِصَهِيبِ أَبْنِ يُكَنَّى بِهِ ؟ قَالَ النَّاسُ : إِنَّهُ يُكَنَّى أَبَا يَحْيَى ،  
وَإِنَّهُ يُطْعَمُ الطَّعَامَ الْكَثِيرَ ، كَمَا كَانَ أَجْوَادُ الْعَرَبِ مِنْ قَوْمٍ يَفْعَلُونَ .  
قَالَ عُمَرُ : وَإِنَّ صَهِيبًا مِنَ الْعَرَبِ ؟ قَالُوا : بِذَلِكَ يَحْدُثُنَّ . فَسَكَتَ  
عُمَرُ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا . حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتُ يَوْمٍ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مِنْ  
حَوْلِهِ كَثِيرٌ وَفِيهِمْ صَهِيبٌ ، دَعَاهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : مَالِكُ نُكَنَّى أَبَا يَحْيَى  
وَلَيْسَ لَكَ وَلَدٌ ، وَتَقُولُ إِنَّكَ مِنَ الْعَرَبِ وَأَنْتَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ ، وَتُطْعَمُ  
الْطَّعَامَ الْكَثِيرَ وَذَلِكَ سَرْفٌ فِي الْمَالِ ؟ فَقَالَ صَهِيبٌ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنَانِي أَبَا يَحْيَى . وَأَمَّا قَوْلُكَ فِي النَّسْبِ  
وَادْعَائِي إِلَى الْعَرَبِ فَإِنِّي رَجُلٌ مِنَ النَّفَرِ بْنِ قَاسِطٍ مِنْ أَهْلِ الْمُوْصَلِ ،  
وَلَكِنْ سُبِّيَتْ ، سُبِّيَتْ الرُّومُ غَلَامًا صَغِيرًا بَعْدَ أَنْ عَقْلَتْ أَهْلُهُ  
وَقَوْيَ وَعَرَفَتْ نَسْبِيَ . وَأَمَّا قَوْلُكَ فِي الْطَّعَامِ وَإِسْرَافِ فِيهِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : « إِنَّ خَيَارَكُمْ مِنْ أَطْعَمِ الْطَّعَامِ  
وَرَدَ السَّلَامُ » ! فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى أَنْ أَطْعَمَ الْطَّعَامَ . فَسَكَتَ عَنْهُ عُمَرُ .  
وَعَاشَ صَهِيبٌ مَا عَاشَ خَيْرٌ مِثْلُ الْمُسْلِمِ كَمَا صَوْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ  
حِينَ قَالَ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلَّمَ النَّاسَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » . وَلَمْ  
يَكُنْ يَعْطِي النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا خَيْرًا ، كَمَا يَجْعُودُ عَلَيْهِمْ بِمَالِهِ وَعِلْمِهِ

جيمعاً ، لا يتحفظ في الجمود بالمال ، ولا يتحفظ في الجمود بالعلم ، إلا بواحدة ، كان شأنه فيها شأن التخيير<sup>(١)</sup> من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : لم يكن يجب أن يتحدث عن النبي مخافة أن يخطئ الحديث . وكان يقول للناس : هلموا أحذئكم عن مغازينا ، فلما أن أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا .

ولم يكن لصهيب أيام أبي بكر وعمر إلا شأن الرجل الخير الكريم من المهاجرين . ولكن عمر رحمه الله يطعن ذات صباح ، وينظم أمر الشورى حين أحس الموت ، ويأمر فيما يأمر به أن تكون صلاة المسلمين إلى صهيب ثلاثة حتى يختار أهل الشورى للمسلمين إماماً .

وينظر المهاجرون والأنصار ، فإذا صهيب يصلى بهم المكتوبات بأمر عمر . فإذا حضرت جنازة عمر قدّموا صهيباً فصلّى بهم عليه . فقد كان صهيب إذن إماماً للمسلمين حتى فرغ أهل الشورى من تشاورهم ، لم ينكّر المهاجرون والأنصار من ذلك شيئاً . ولكن نفراً من شباب قريش جعلوا يتحدثون بذلك فيما بينهم ، ولم يكن شباب قريش يألفون عمر ولا يطمعنون إلى سيرته ، لشدة حبه على قريش ولشدة فن الحق عامة . ويقول بعض أولئك الشباب لبعض : ألم تروا إلى عمر يقدم هذا الروى ليصلى بالمهاجرين والأنصار ، وقد كان صهيب عبداً لرجل من قريش ؟ فيقول آخر : الحمد لله على أنه لم يزد على أن يجعل إليه الصلاة حتى يختار هؤلاء الرهط منهم

---

(١) التخيير : الصالحين الكباري التخير .

إماماً ! فقد كان خليقاً أن يستخلفه وأن يجعل إليه إمرة المؤمنين .  
 قال آخر : وَيُحَلِّك ! إنك لترى في الظن ، وإن بعض الظن  
 لاثم . ما كان عمر ليستخلف على المسلمين مولى عبد الله بن جدعان  
 من سبي العرب أو من سبي الروم ، قال صاحبه وهو يضحك  
 ضحكة ساخرة : ألم يبلغك أن عمر قال : لو كان أبو عبيدة  
 بن الجراح حياً لاستخلفته ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً  
 لاستخلفته . وهل كان سالم مولى أبي حذيفة إلا ريقاً فارسياً من أهل  
 إصطخر ؟ فإذا تمنى عمر أن يستخلف على المسلمين عبداً فارسياً  
 فما يمنعه أن يستخلف عليهم عبداً رومياً ؟ قال أحدهم وقد ثار مغضباً :  
 ما رأيت كاليوم رجوعاً إلى الباهالية الأولى . ويلكم ! أ المسلمون  
 أتم صادقون في إسلامكم أم منافقون ؟ رحم الله عمر ! والله ما عرفناه  
 إلا برأ صادق النصح لله ورسوله وللمؤمنين . ألم تقرعوا قول الله عز  
 وجل : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَرَّةٍ وَجَعَلْنَاكُمْ  
 شُعُوراً وَبِإِيمَانٍ لَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ إِنَّ اللَّهَ  
 عَلِيمٌ بِخَيْرِكُمْ » ؟

وتفرق أولئك الفتية وقد ثاب بعضهم إلى الحق والهدى ؛ وأسرر  
 بعضهم الآخر في نفسه أن السلطان عربي لا ينبغي لأحد - ولو  
 كان عمر - أن يصرفة عن العرب وعن قريش خاصة إلى الفرس  
 أو الروم . وكان تفكير هؤلاء الفتية وقوم " كثير أمثالهم مصدر شرّ  
 عظيم للمسلمين .

أقام عبد الله بن مسعود بمحصنَ بعد أن فتحت على المسلمين ما شاء الله أن يقيم ، مرابطًا في سبيل الله . ولكن المهاجرين والأنصار من أقام في المدينة ينظرون ذات يوم فإذا هو بين أظهرهم في المسجد ، فيستبقون إليه مسلمين عليه ، ويسألونه عن مقدمه فيقول : ما أدرى ، وإنما دعاني أمير المؤمنين فقدمت . ثم يلقى عمر عبد الله بن مسعود فيخلو إليه ، ويخلو من بعده إلى عمار بن ياسر ، ويخلو من بعدهما إلى عثمان بن حنيف ثم يعلن إلى المسلمين في أعقاب صلاة من الصلوات أنه قد جعل صلاة الكوفة وحربها إلى عمار بن ياسر ، وأنه قد جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها إلى عبد الله بن مسعود ، وأنه قد جعل سواد الكوفة إلى عثمان بن حنيف . فأماماً أصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار فيسمعون ويعرفون في سرائر نفوسهم وفي ظاهر سيرتهم . وأمام الذين أسلموا بأخره من أشراف قريش فيسمعون ويطيعون وينصرفون وفي نفوسهم شيء . يقول أحدهم لصاحبه : غفر الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرة الكوفة لابن سمية ، ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أم عبد ! وأين هو عن أشراف قريش وعن السابقين الأولين من المهاجرين ! فيقول له صاحبه : أمسك عليك نفسك ، لا يبلغ عمر من حديثك هذا شيء فيظن بك النفاق ويؤذ بك أديباً لا تحبه . إنك لحديث

عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من القرآن إلا قليلا . ألم تسمع قول الله عز وجل : « وَنُرِيدُ أَنْ نَسْنُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْنَفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلُهُمْ أَمْمَةً وَتَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُنْرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجِنودُهُم مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » ؟ ! فإن عمر لم يزد على أن أتجز بعض وعد الله عز وجل لبعض هؤلاء المستضعفين في الأرض . قال صاحبه وقد أظهر الرضا : هو ذاك . وانتهى عمار بن ياسر وابن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة ، واجتمع أهلها في المسجد ، فقرئ عليهم كتاب عمر ، فإذا فيه : « أما بعد ، فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود معلماً وزيراً ، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم ، وإنهم من النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لهم وأطيعوا واقتدوا بهما . وقد آثرتكم بابن أم عبد على فقسي ، وبعثت عثمان بن حنيف على السواد ، ورزقهم كل يوم شاة ، فاجعلوا شطرها وبطنها لعمار ، والشطر الباقي بين هذين الرجلين ». وقد سمع أهل الكوفة ورضوا وأطاعوا فأحسنوا الطاعة ، وأحسن أمراؤهم السياسة . ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير مصر عظيم من أمصار المسلمين وجوش عظيم من جيوشهم . وأكبر الظن أنه استحضر في نفسه ما لقى من الجهد والختمة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وما لقى من الشدة والآسياء مع النبي بعد أن هاجر إلى المدينة ؛ فلم يقع هذا كله من نفسه موقعاً غريباً ، وإنما آمن بأن وعد الله حق . ولم يدفعه هذا كله

إلى تكبير أو تجبر أو استعلاء ؛ لأنه استيقن كما استيقن نظراؤه من أصحاب النبي أن هذه الحياة الدنيا غرور ، وأنها فتنٌ يُمْتَحِنُ بها أولو الحزم والعزم في أنفسهم ؛ فمن خلص منها كريماً نقىًّا سليم القلب فهو من الناجين ، ومن رتع فيها حتى أرضي غرائزه وشهواته فهو من الذين حبطت أعمالهم وضلّ سعيهم<sup>(١)</sup> وعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا .

واستحضر ابن مسعود في أكبر الظن حياته تلك حين كان راعياً لغنميات عقبة بن أبي مُعْيَط ، قد أذيرت عنه الدنيا ببعضها ودعنتها وثراها ونعيمها ، وذكر أن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رضى عن أمانته حين أبى أن يسوقه ويستقي صاحبه من ابن عم بن أبي مُعْيَط ، وذكر أن النبي اتمنه على سرمه وضممه إليه وجعله من خاصته ، وذكر أن النبي قال فيه ذات يوم : « إن ساقه لأنقل في الميزان يوم القيمة من أحد » ؟ فلم يزده هذا إلا إيماناً وتشبيتاً وحبّاً للأمانة واستمساكاً بها ، وفاءً لخليله ونصحاً لأمته .

وقد أقام عمار ما شاء الله أن يقيم أميراً على الكوفة ، فكان يسيرأ سفحاً لم يتغير من أمره شيء : صمت كثير ، وكلام قليل ، واحتلاط بالناس كأنه رجل من عامتهم ، وإقامة العدل ، وحكم بالقسط ، ونصح في الدين لا تكلف فيه ولا تزكيه . سئل ذات يوم في بعض ما يُشكِّل من أمور الناس فقال : أكان هذا بعد ؟

---

(١) سُلِّمَ سعيهم : أى نسَدَتْ أعمالهم وذهبَتْ سُلَى ، وخابت .

قالوا لا . قال : دَعْوَهُ حَتَّى يَكُون ؛ فَإِذَا كَانَ تَجْشِمَنَا هَا<sup>(١)</sup> لَكُمْ .  
 وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَاتِ بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ كَمَا يَخْرُجُ غَيْرُهُ مِنْ عَامَةِ  
 النَّاسِ . تَحْدَثَ مِنْ رَأْهُ وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ يَشْتَرِي قَتَّاً بِدِرْهَمٍ . ثُمَّ  
 يَسْتَرِيدُ الْبَاعِيْعَ حَبْلًا فِي أَيْمَانِهِ الْبَاعِيْعَ . فَيَجَادِلُهُ عَمَارُ حَبْلَهُ وَيَنَازِعُهُ  
 حَتَّى يَأْخُذَ نَصْفَهُ . ثُمَّ يَحْمِلُ قَتَّهُ عَلَى ظَهُورِهِ وَيَضْعِي بِهِ إِلَى دَارِهِ  
 وَهُوَ الْأَمِيرُ . لَا يُنَكِّرُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا . وَلَا يَرَى أَنْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ  
 يَغْضُبُ مِنْ قَدْرِهِ أَوْ يَحْطُطُ مِنْ مَكَانِهِ . وَلَا يُنَكِّرُ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ  
 شَيْئًا وَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَنْخُسُهُ<sup>(٢)</sup> عَنِ الْمُنْزَلَةِ الَّتِي تَبْغِي لِلْأَمِيرِ . وَكَانَ عَمَارُ  
 لَا يَغْضُبُ لِنَفْسِهِ مَهْمَا يُؤْذَدَ . فَإِذَا تَعْرَضَ أَحَدُ لَهُ لَهُ أَوْ لَهُ  
 النَّاسُ غَضَبُ عَمَارٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِالْحَقِّ وَيَرِدُ الْأَمْرَ إِلَى نَصَابِهِ .  
 عَرَفَ أَنَّ رَجُلًا وَشَيْئًا بِهِ إِلَى عَمَرٍ ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ قَالَ : اللَّهُمَّ  
 إِنْ كَانَ قَدْ كَذَبَ عَلَىَّ فَاقِسِطْ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَاجْعَلْهُ مُوَاطِنًا لِلْعَقْبِ<sup>(٣)</sup> .  
 وَأَقْبَلَ بِجِيشِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَدَدًا لِأَهْلِ الْبَصَرَةِ فِي بَعْضِ  
 الْمَوْاقِعِ . فَلَمَّا أَظْفَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصَرَةِ : يَا أَجَدَعَ ،  
 أَتَرِيدُ أَنْ تَشَارِكَنَا فِي غَنَائِمِنَا ؟ فَلَمْ يَزِدْ عَمَارُ عَلَىَّ أَنْ قَالَ وَهُوَ يَضْحَكُ :  
 خَيْرٌ أُذْنِي سَبَبَتِ . وَكَانَتْ أَذْنَهُ تِلْكَ قَدْ أَصْبَيْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 يَوْمَ الْيَاهِمَةِ . وَقَدْ أَبْيَ أَهْلَ الْبَصَرَةِ أَنْ يُشْرِكُوا عَمَارًا وَأَصْحَابَهُ فِي الْغَنِيمَةِ ،  
 وَأَبْيَ عَمَارٍ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ لِأَصْحَابِهِ حَقَّهُمْ مِنْهَا . فَكَتَبُوا فِي ذَلِكَ إِلَى عَمَرٍ ،  
 فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ عَمَرٌ : إِنَّمَا الْغَنِيمَةَ مِنْ شَهَدَ الْوَقْعَةَ . وَأَخْذَ عَمَارًا وَأَصْحَابَهِ

(١) تَجْشِمُ الْأَمْرَ : تَكَلَّفُهُ عَلَى مُشْتَقَةِ .

(٢) يَنْخُسُهُ : يَحْطُطُهُ وَيَنْزَلُ قَدْرَهُ .

(٣) هُوَ مُوَاطِنُ الْعَقْبَ : أَيْ يَتَبعُ ، وَكَانَهُ تَدَاسٌ عَقْبَهُ مِنْ ازْدِحَامِ الْقَوْمِ وَرَاءِهِ .

حفهم . وكان عمر يخالف بين ولاته على الأمسار ، لا يكاد يجد لأحدهم في الولاية . فلما عزل عمارة ولقيه بعد ذلك في المدينة قال له : أساءك عزّلنا إياك ؟ فأجابه عمار : أما إذا قلت ذلك فقد ساعني حين استعملتني وساعني حين عزلتني . ثم فرغ عمارة للعبادة والطاعة والأمر بالمعروف ونأيي الناس في دينهم ما بي من أيام عمر وصدرأ من أيام عثمان . ولكن عمارة يعلم ذات يوم أن عثمان قد أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر ، فيحضره خاطر مؤلم يمراه في نفسه ثم يلقيه في أعماق ضميره لا يحدث به نفسه بعد ذلك ولا يحدث به الناس . ويذكر أن آية في القرآن قد أنزلت أشير فيها إليه وإلى عبد الله بن أبي سرح هذا الذي أمر على مصر ، وهي قول الله عز وجل : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرَّح بالكفر صدرأ فعلهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » . وكان المسلمون يرون أن عبد الله بن أبي سرح هو الذي أشير إليه في قول الله عز وجل : « من شرَّح بالكفر صدرأ » .

يقول عمار لنفسه إن عبد الله بن أبي سرح قد عاد بأخره إلى الإسلام ، فعسى أن يكون قد تاب وأصلح ، وعسى الله أن يكون قد حط عنه ثقل الكفر بعد الإيمان . ولكن سيرة عبد الله بن أبي سرح في مصر تصبح موضع الشكوى بين المصريين كثيرة غيره من ولاة عثمان في الكوفة والبصرة . ثم تكثر الشكوى ويشيع التشكيك ، حتى يغضب المهاجرون والأنصار في المدينة ويتكلمون في ذلك ، ثم يجتمعون ويتشاورون ، ويذهب عمار إلى عثمان عن نفسه أو عن

وراءه من المسلمين ليحدّثه برأي الناس في ولاته ، فلا يرضى قوله عثمان ، ويعظم الأمر بينهما ، حتى يأمر عثمان بإخراجه ، فيخرجه غلمانه ويصرّبوه حتى يُغشى عليه ، وحتى يظن الناس أنه الموت . ولكن عمّاراً يفيق ويقول : طالما عذّبنا في الله من قبل . ويصبح منذ ذلك اليوم زعيمًا من زعماء المعارضة لعثمان .

## ٢٥

لبث عبد الله بن مسعود في الكوفة بعد أن عزل عنها عمار ابن ياسر ، لم يَعُدْ إلى المدينة ، ولم يُنْجَحْ عن عمله ، وإنما ظل أميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها مشيراً على ولاتها . وقد علم الناس فأحسن تعليمهم ، فلأقليوهم حباً له وإعجاباً به . وترك في نفوسهم أقوى الأثر وأبقاءه .

ولم يكن ذلك غريباً ؛ فقد لزم ابن مسعود رسول الله فأطّال لزومه ، حتى ظن بعض أصحابه أنه من أهل البيت ؛ وأنخد من فم النبي سبعين سورة من القرآن لم يُنْازِعْهُ فيهنَّ أحد ، وكان الذي يحب قراءته للقرآن ويحبّها إلى الناس ويقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضَّاً كَمَا أَنْزَلَ فَلِيَقْرَأْهُ عَلَى ابْنِ أَمْ عَبْدٍ » .

وكان عبد الله شديد التأثير<sup>(١)</sup> للنبي في قوله وعمله وفي حركته وبسكنه وفي تحدثه إلى الناس واستماعه لهم ، وفي تأسيه للأمور<sup>(٢)</sup> حين تعرض ، وثباته للخطوب حين تشتد ، وكان شديد الاقتداء به

(١) التأثير : الاقتداء والاتباع .

(٢) تأكّل للأمر : ترقق له وتقصد .

فِي هَذَا كُلَّهُ ، حَتَّى اتَّفَقَ الَّذِينَ عُرِفُوا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ أَنَّهُ كَانَ أَشَبَّ النَّاسَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَدِيهِ وَسَمْتِهِ وَدَلِيلِهِ<sup>(١)</sup> . وَكَانَ حَذِيفَةُ ابْنِ الْيَمَانِ يَقُولُ : ابْنُ مُسْعُودٍ أَشَبَّ النَّاسَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَدِيًّا وَسَمِيًّا وَدَلَالًّا حَتَّى يُوَارِيْهِ جَدَارَ بَيْتِهِ .

وَكَانَ ابْنُ مُسْعُودٍ يُقْرَأُ النَّاسُ الْقُرْآنَ أَثْنَاءِ إِقَامَتِهِ فِي الْكُوفَةِ ، وَيُعَظِّمُهُمْ عِيشَةً كُلَّ خَيْسٍ ، يَقُومُ فِيهِمْ خَطِيبًا مَعْتَمِدًا عَلَى عَصَمٍ ، فَيَتَكَلَّمُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ ثُمَّ يَسْكُتُ ، وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى سَامِيعِهِ أَنْ يَمْضِي فِيهَا كَانَ فِيهِ مِنْ حَدِيثٍ . وَلَمْ يَكُنْ ابْنُ مُسْعُودٍ يَخَافُ شَيْئًا كَمَا كَانَ يَخَافُ الرِّوَايَةَ عَنِ النَّبِيِّ ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْمُتَحَفَّظِينَ الَّذِينَ سَمِعُوا النَّبِيَّ يَقُولُ : « مَنْ كَذَّبَ عَلَى مَعْتَمِدٍ فَيَلْتَبِأُ مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ » ! فَأَفَسَقُوا أَنْ يَتَحَدَّثُوا عَنْهُ فَيَخْطُطُوا صِدْرَقَ الْحَدِيثِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَجَرِيَ مَرَةً عَلَى لِسَانِ ابْنِ مُسْعُودٍ وَهُوَ يُعَظِّمُ النَّاسَ قَوْلَهُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمْ يَكُدْ هَذَا القَوْلُ يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى أَخْدَتْهُ رُعْدَةً عَنِيفَةً اضْطَرَبَ لَهَا جَسْمُهُ كَلَهُ وَتَزَعَّزَتْ لَهَا العَصَمُ الَّتِي كَانَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا وَتَصَبَّبَ الْعَرْقُ عَلَى جَبَهَتِهِ ، فَقَالَ : أَوْ فَوْقَ هَذَا ، أَوْ نَحْوَ هَذَا ، أَوْ دُونَ هَذَا ، وَلَمْ يَرْضِ أَهْلَ الْكُوفَةِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ لَوَاتِهِمْ كَمَا رَضُوا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْعُودٍ وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ . وَقَدْ تَوَفَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَابْنُ مُسْعُودٍ أَمِيرُ عَلِيٍّ بَيْتَ الْمَالِ فِي الْكُوفَةِ ، فَأَفْرَغَهُ عَمَانٌ عَلَى عَمَلِهِ . حَتَّى إِذَا كَانَتْ لَوَالِيَّةُ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ لِلْكُوفَةِ حَدَّثَتْ أَحَدَادُهُ حَوْلَتْ ابْنُ مُسْعُودٍ إِلَى الْمَارِضَةِ ،

(١) الْمَدِيُّ وَالسَّمِتُ وَالدَّلِيلُ ، قَرِيبٌ مِنْ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضِهَا ، وَهِيَ عَبَارةٌ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ مِنْ السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ وَحِينَ السِّيرَةِ وَالطَّرِيقَةِ .

وكان ابن مسعود قبل هذه الأحداث من أرضي الناس عن عثمان وأحسنهم ذكرًا له وداعه إليه .

٢٦

وقد حدث بعض هذه الأحداث في الكوفة ، وحدث بعضها الآخر في المدينة ، فاما ما حدث منها في الكوفة فسياسة جديدة في بيت المال لم يألفها عبد الله بن مسعود ولم يكن ليطمن إلها أو يرضها . فقد كان الوليد يتسع في النفقة ، ويرى أن له أن يصنع بمال المسلمين ما يشاء . وكان ابن مسعود قد ألف منذ أيام عمر أن أموال بيت المال ملك للمسلمين لا للأمراء ، وأن الأمراء لا ينبغي أن ينفقوها إلا بحقها وفي الوجوه التي تنفع عمامة المسلمين .

ولإلى جانب هذه السياسة المالية الجديدة كان للوليد بن عقبة سيرة لم يرض عنها خيار أهل الكوفة . وقد أنكر ابن مسعود ما أنكر الناس ، وكره الوليد منه هذا الإنكار ، واشتد الخلاف بينهما . وكان الناس إلى ابن مسعود أميل ، وله أحب ، ولقوله أكثر استماعاً .

وأما ما حدث في المدينة فانتداب<sup>(١)</sup> عثمان لجمع القرآن في مصحف واحد وقراءة واحدة .

وقد ألف عثمان لهذا العمل الخطير بلته من حفاظ المسلمين . وجعل رياستها لزيد بن ثابت . وليس من شك في أن عثمان قد نصح للمسلمين في هذا العمل ، وكراه لهم أن يختلفوا في قراءة كتاب الله . ولما تم له جمع المصحف أذاعه في الأمصار ، وحضر

(١) انتدب للأمر : دعا إليه وحث عليه .

القراءة على غير ما كتب فيه ، وتقديم في تجريق غيره من الصحف التي كتب فيها القرآن قبل أن يجمع المصحف الإمام . فكره ابن مسعود ذلك ، وكان من أقرأ الناس وأحفظهم ، وأبى أن يذعن لأمر عثمان . ثم لم يكتف بذلك ، وإنما جعل يلهم ب النقد ما تقدم فيه عثمان وبنقد سيرة الوليد في الكوفة . وكان إذا خطب الناس يوم الخميس من كل أسبوع قال لهم فيها كان يقول : إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلاله ، وكل ضلاله في النار ، ورأى الوليد في هذا الكلام تعرضاً به وبعثان ، فتقدم إلى ابن مسعود في ألا يعيده ! فلم يخلف به ابن مسعود ولم يلتفت إليه . فكتب فيه إلى عثمان ، وكتب إليه عثمان يأمره بإخراج ابن مسعود من الكوفة وإرساله إلى المدينة ففعل . وخرج الناس يشيعون ابن مسعود إلى ظاهر الكوفة مهزتين يلحون عليه في أن بيق بينهم ، ويختلفون عليه من عثمان أن يطش به أو يناله بمكره ، ويعاهدونه على أن يحموه فلا تصل إليه يد بسوء ؛ ولكنه أبي عليهم قاتلا : إن هذا أمر سيكون ، وما أحب أن أكون أول من فتحه . ودخل المدينة ذات ليلة ، فلما أصبح غدا على المسجد ، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة . فلما رأه عثمان قال له قولاً غليظاً وعايه من أعلى المنبر ، فرد عليه ابن مسعود قاتلا : لست كما تقول ، ولكنني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وَيَوْمَ أَحَدٍ وَيَوْمَ الْخِندَقِ وَيَوْمَ بَيْعَةِ الرَّضْوَانِ . ونادت عائشة رحمها الله من وراء الستر : وَيُحَكِّ يا عثمان ! أتفعل هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم !

فقال لها عثمان : اسكنني ، ثم أمر بعض ع\_slمانه بإخراجه من المسجد . فما قبل غلام أسود طوال فاحتمل ابن مسعود وأخرجـه من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وابن مسعود يحاول أن يفلت منه ورجالـه تختلفـان على كتفيه وهو يصبحـ بعثمان : أنسدْكَ اللـه لا تخرجنـي من مسجدـخليلـي صلـى اللـه عليه وسلم . ولكنـ الغلام يضـيـ به ، حتىـ إذا بلـغـ بـابـ المسـجـدـ ضـربـ بهـ الأرضـ فـكسرـتـ إحدـىـ أصـلاـعـهـ ، وـحـلـ إلىـ بيـتهـ مـكـروـبـاـ . ثمـ لمـ يـقـفـ الـأـمـرـ عـنـ هـذـاـ الـحـدـ ، وإنـماـ حـرـمـهـ عـمـانـ عـطـاءـهـ سـتـينـ . فـاقـامـ ابنـ مـسـعـودـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ مـغـضـوبـاـ عـلـيـهـ مـنـ الـإـمـامـ . يـوـادـهـ عـلـيـ رـغـمـ ذـلـكـ صـدـيقـهـ مـنـ أـصـحـابـ النـبـيـ . حتىـ إذاـ أـدـرـكـهـ المـرـضـ الـذـيـ مـاتـ فـيـهـ عـرـفـ عـمـانـ أـنـ مـشـرـفـ عـلـىـ الـمـوـتـ . وـهـنـاـ يـخـتـلـفـ الرـوـاـةـ : فـأـمـاـ النـاقـمـونـ مـنـ عـمـانـ فـيـقـولـونـ إـنـ سـعـىـ إـلـىـ اـبـنـ مـسـعـودـ وـاعـتـدـرـ إـلـيـهـ . وـعـرـضـ عـلـيـهـ عـطـاءـهـ وـسـأـلـهـ أـنـ يـسـتـغـفـرـ لـهـ . فـلـمـ يـقـبـلـ مـنـهـ اـبـنـ مـسـعـودـ شـيـئـاـ ، وـوـسـطـ عـمـانـ أـمـ حـبـيـبـةـ زـوـجـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـنـدـ اـبـنـ مـسـعـودـ فـلـمـ يـقـبـلـ هـاـ وـسـاطـةـ . وـمـاتـ اـبـنـ مـسـعـودـ وـالـأـمـرـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ عـمـانـ عـلـىـ شـرـ ماـ يـكـونـ . وـقـدـ يـغـلـوـ النـاقـمـونـ عـلـىـ عـمـانـ فـيـزـعـمـونـ أـنـ اـبـنـ مـسـعـودـ أـوـصـىـ أـلـاـ يـصـلـىـ عـلـيـهـ عـمـانـ ، وـأـنـ عـمـارـ بـنـ يـاسـرـ تـلـقـيـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ وـأـنـفـذـهـ : فـكـانـ هـذـاـ مـاـ زـادـ غـضـبـ عـمـانـ عـلـىـ عـمـارـ .

وـأـمـاـ الـدـيـنـ يـتـوـلـونـ عـمـانـ وـيـحـسـنـونـ الـظـنـ بـهـؤـلـاءـ النـفـرـ مـنـ الـمـهاـجـرـينـ فـيـقـولـونـ : إـنـ عـمـانـ عـادـ اـبـنـ مـسـعـودـ فـيـ مـرـضـهـ وـاعـتـدـرـ إـلـيـهـ ، فـقـبـلـ مـنـهـ وـاستـغـفـرـ كـلـاـ الرـجـلـيـنـ لـصـاحـبـهـ ، وـمـاتـ اـبـنـ مـسـعـودـ فـصـلـىـ عـلـيـهـ عـمـانـ وـقـامـ عـلـىـ قـبـرـهـ وـأـحـسـنـ الشـنـاءـ عـلـيـهـ . وـهـذـاـ أـشـبـهـ بـسـيـرـةـ الرـجـلـيـنـ جـمـيعـاـ . وـيـدـخـلـ الزـبـيرـ بـنـ العـوـامـ عـلـىـ عـمـانـ ، وـكـانـ اـبـنـ مـسـعـودـ قدـ

أوصى إليه فيقول له : ادفع إلى عطاء ابن مسعود ؛ فإن عياله أحق به من بيت المال . قال عثمان : نعم ، ثم أدى إلى الزبير عطاء ابن مسعود ومثله معه ، وأمر خازن بيت المال فدفع للزبير خمسة عشرين ألفاً .

ويجتمع أهل الكوفة بعد ذلك بستين حول علي رضي الله عنه ، ويذكر ابن مسعود ، فيقولون لعلي : يا مير المؤمنين ، ما رأينا رجالاً كان أحسن خلقاً ولا أرقى تعليماً ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعاً من عبد الله بن مسعود . فقال علي : نشد لكم الله ، إنه لصدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم . فقال : « اللهم إنيأشهدك ، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل » .

## ٢٧

لم يشتد أحد من أهل المدينة في معارضه عثمان حين ظهرت الفتنة كما اشتد عمار بن ياسر ، كان على الفطرة كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يكره التأول ويكره المتأولين ، وكان يحب من القول أصرحه . ومن العمل أوضنه ، ومن السيرة أشدّها استقامة وأبعدها عن العوج والالتواء . وكان الدين الخالص قطعة من طبعه وعنصرًا مقوّماً لمزاجه ، وكان أزهد الناس في الدنيا وأقلهم احتفالاً بمنافها ، وأشدّهم خوفاً من الفتنة ، وأكثرهم انصرافاً عن تعقيد السياسة والتواها . وكان يحب الحق ويسعى إليه ، ولا يحب إلا الحق ولا يسعى إلا إليه . وقد رأى من سيرة النبي وصاحبيه استقامة لا عوج فيها ، وصراحة بريئة من الغموض ، فاستقر في نفسه أن أمر السلطان يجب أن يستقيم دائمًا كما استقام للنبي

وصاحبيه . فلما رأى اختلاط الأمر واشتباك المنافع واختلاف الأهواء أيام عثمان ، شق عليه هذا كله ، فلم يستطع قلبه أن يسيغه ، ولم تستطع فطرته أن تطمئن إليه ، فأنكر فيها بيته وبين نفسه ولاد بصمته الطويل ، واستعاد بالله من الفتنة كأشد ما يستعيد الإنسان بالله منها . ثم رأى الناس ويعهم ينكرون ، فلم يكدر يفكرون وقدر ويستقصى حتى أنكر كما أنكروا وعارض كما عارضوا ، ولكنها على ذلك استمسك بالصمت واستعاد بالله من الفتنة ؛ حتى رأى وسمع أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله ومن المهاجرين بينهم خاصة ينكرون ، فجعل اليقين يستبين له .

وتحدَّث الناس في المدينة ذات يوم أن عثمان أخذ شيئاً من جوهر كان في بيت المال فحلي به بعض أهله ، وجعل المهاجرون والأنصار يقولون في ذلك حتى أكثروا . وتكلم عثمان على المنبر ذات يوم فقال : لسانَدَنْ حاجتنا من هذا المال وإن رَغِمْتُ أَنْوَفَ أَقْوَامَ . قال على : إذن تُمنع من ذلك . وقال عمار : أشهد الله أن أني أول راغم . وقد سكت عثمان لقول على وغضب لمقالة عمار فشتمه ، وكان هذا في بعض ما يُروَى أول الشر الذي انتهى إلى ضرب عثمان لعمار حتى أصحابه الفتق وعشى عليه وفاته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضاً وصلاهن ، وذكر فتنة قريش له وتعذيبها إياه في الإسلام . ومنذ ذلك اليوم خرج من صمته ، وجعل يقوم ويعد بنقد عثمان . حتى إذا أقبل الثائرون من الأمصار لم ينكروا عليهم ولم يحاولو ردهم . ثم قُتل عثمان فلم يأس على قتله .

---

(١) يأس : يحزن .

وريما جادل في أن عثمان قد قُتل مؤمناً أو كافراً . وقد خاصم الحسن بن عليّ في ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً . واشتد الجدال بينهما حتى ارتفعا فيه إلى على رحمة الله ، ففكَّ على عماراً عن مثل هذا الجدل في رفق .

ولم يشتد عمار في شيء بعد قتل عثمان كما اشتد في مناصرة عليّ ولا سيما حين ثارت الحرب بينه وبين معاوية .. في ذلك الوقت استيان الحق لنفس عمار وقلبه وضميره ، ولم يشك لحظة في أن علياً وأصحابه كانوا على الحق ، وفي أن معاوية وأصحابه كانوا على الباطل . ولم يقبل عمار على حرب خالص النية فيها الله ورسوله بعد وفاة النبي كما أقبل على حرب صفين . كانت مقالة النبي له : « تقتلك الفتنة الباغية » قد استقرت في أعماق نفسه ، وكأنها ظهرت له جلية نقية ناصعة ساطعة حين خرج مع عليّ وأصحابه يقصدون قصد صفين . هنالك لم يشك عمار في أن معاوية وأصحابه هم الفتنة الباغية ، وفي أن هذه الحرب التي كانوا ينصبونها لابن عم النبي إنما كانت تشبه غيرها من الحروب التي كانت قريش تنصبها للنبي نفسه يوم بدر ويوم الخندق . فخرج عمار إذن إلى حرب صفين على بصيرة من أمره ، قد أخلص قلبه لله ، ووهد نفسه لله ، وابتغى الشهادة في صفين كما كان يبتغيها في المشاهد التي شهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعه من سمعه وهو يقول ذات يوم أثناء مسيره إلى صفين على شط الفرات : اللهم إلهي لو أعلم أنه أرضي لك عنى أن أرى

بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط ، ملت . اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن ألى نفسى في الماء فأغرق نفسى فعلت : فإنى لا أقاتل إلا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تهبني وأنا أريد وجهك .

وكان عمار في ذات الوقت قد جاوز التسعين ، ولكن الناس ينظرون إليه فإذا هو قد استرد من القوة والشباب والنشاء ما لم يكن لهم عهد به من قبل . كان أسرعهم إلى الحرب وأكرههم للقعود . وأحبهم للموت ، وأبغضهم للحياة ، وكان مستيقناً يقيناً لا يعرض له الشك أنه على حق ، وأنه يقاتل في سبيل الله . وقد اشتدت الحرب بين الفريقين بصفتين يوماً ويوماً . فلما كان اليوم الثالث قال معاوية : هذا يوم تتفاني فيه العرب إلا أن تدركهم خفة العبد . يريد بالعبد عماراً ، ويريد بخفته شدة نشاطه في الحرب واستخفافه بما تحتاج إليه من مكر وكيد وأنانية .

وفي هذا اليوم قاتل عمار نهاره كله حتى ملأ قلوب الناس عجباً وإعجاباً . وكانوا يرونـه شيئاً طويلاً آدم ، ترعد الحربة في يده ، وهو خفيف الحركة موفر النشاط ، يسعى هنا وهناك ، يحرض هذا وذاك ، وفريق من المسلمين يرقبونه ويتحدون بيلاه ، بعضهم يصاحب جيش على ولكنه لا يقاتل كخزيمة بن ثابت الأنصارى الذى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لumar : تقتلـك الفتـة الـبـاغـية ، ورأـيـ عـمـارـاً يـقاـتـلـ معـ عـلـيـ فهو يـرـقـبـ عـمـارـاً ليـرىـ آخرـه . وبـعـضـهـمـ معـ مـعاـوـيـةـ يـشـهـدـ حـرـبـ ولاـ يـشـارـكـ فيهاـ ،

بلغته مقالة النبي في عمار فهو يرقب عماراً وينتظر آخرته . ومن هؤلاء هن مولى عمر بن الخطاب رحمه الله . في ذلك اليوم قاتل عمار وهو على رأس كتيبته حتى كانت العصر ، فلما جعل الأصيل ينشر أشعته الشاحبة الحزينة على المقتليين اشتد نشاط عمار وأخذه شيء يشبه أن يكون شفافاً بالموت ، فجعل يبحث عن حوله على القتال ويصبح : الجنة تحت أطراف العوالى . اليوم ألى الأحبة محمداً وحزبه ، وكان صائماً . فلما وجبت الشمس قال اسقوني . فجاءه بشرية من لبن ، فلما رأها ضحك وشرب ثم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آخر زادك من الدنيا لبن حتى تموت » . ثم جعل يحرض الناس ويسعده مقالته : الجنة تحت أطراف العوالى ، الظمان يرد الماء ، الماء مورود ، اليوم ألى الأحبة ، محمداً وحزبه . وقد انكشف أصحاب على شيئاً ، فلم يوهن ذلك من نفس عمار ولم يبلغ من يقينه شيئاً ، وإنما جعل يقول والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمت أنا على حق وأنهم على ضلاله . وكانت راية معاوية مع عمرو بن العاص ، فجعل عمار ينظر إليها ويقول : لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة . وكانت راية على مع هاشم بن عبدة بن أبي وقاص : وكان هاشم أعزور ، فكان عمار يبحثه ، يُغليظ عليه مرة فيقول : تقدم يا أعزور ، ويرفق به مرة أخرى فيقول : تقدم يا هاشم فداك أبي وأمى . وكان هاشم يقول له : رحمة الله يا عمار ! إنما أزحف باللواء وأرجو أن يفتح الله على ويبلغني ما أريد ، وإن في العجلة الهملة . فيقول له تقدم

فداك أبي وأمي ، وما يزال به حتى يتقدم . فإذا رأى عمار صاحب الراية يتقدم بها صاحب من حوله : من راجح إلى الله ! من راجح إلى الجنة ؟ ثم اندفع فقائل حتى قتل .

وقد رأى خزيمة بن ثابت مصرع عمار فقال : الآن استبانة لى الصلاة ، ثم دخل فسطاطه فاغتسل ، ثم ليس سلاحه ثم تقدم فقاتل حتى قتل .

وأما هني مولى عمر بن الخطاب فقد عرف عماراً حين أسره الصبح ، فأقبل حتى دخل على عمرو بن العاص وهو جالس على سريره ومن حوله نفر يتحدث إليهم ، فقال هني : أبا عبد الله ؛ قال عمرو : ما تشاء ؟ قال هني : انظر أكلمك . فقام عمرو حتى خلا إليه . قال هني : عمر بن ياسر ، ماذا سمعت فيه ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتله الفتنة الباغية . قال هني : ها هو ذا مقتول . قال عمرو : هذا باطل . قال هني : بصرت عيني به مقتولا . قال عمرو : هلم أربنه . فذهب به حتى رآه بين القتلى . فلما رآه امتعن لونه ، ثم أعرض في شق ، وقال : إنما قتله من أخرجه .

وكان عمار قد قال لأصحابه مساء ذلك اليوم : لا تغسلوني ولا تتحشو على تراباً فإني مخاصم . فلما قُتل أقبل على فصلتي عليه ، ولم يُغسله وقال : إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد . رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً . لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة إلا كان رابعاً ، ولا خسفة إلا كان خامساً . وما كان

أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا أثين . فهنيئاً لعمار بالجنة » . ولقد قيل : إن عمار أعم الحق والحق معه يدور . عمار مع الحق أينما دار ، وقاتل عمار في النار !

## ٢٨

أقبل رجالان من أصحاب معاوية حتى دخلا عليه فسطاطه وعده عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو ونفر من أصحابه ، فجعلوا يختصمان في قتل عمار ، كلهم يزعم أنه قاتله . قال عبد الله بن عمرو : ليطّب به أحدكم نفساً لصاحبه ، فإنما تختصمان في النار ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفتة الباغية ، وقاتلته وسالبه في النار ». قال معاوية لعمرو : ألا تكف عن جنونك يا عمرو ! ثم التفت إلى عبد الله بن عمرو وقال : إن كان هذا رأيك فمالك معنا ؟ قال عبد الله : إن أبي شكانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرني أن أطيبه ما دام حياً ؛ فأنا معكم ولست أقاتل . قال معاوية : لم تقتله ، إنما قتله من جاء به .

جلس عمرو بن العاص إلى جماعة من أصحابه يسرم معهم بعد أن خلص الأمر كله لمعاوية ، فقال له بعض القوم : إنما نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحبك وكان يستعملك أبا عبد الله . قال عمرو : أما إنه كان يستعملني ، وما أدرى أكان يحبني أم كان بتالبني<sup>(١)</sup> ، وبكتنا نرى أن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفقاً رسول الله وهو لهما محب وعنهما راض . قال القوم . من هما ؟ قال عمرو : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . قال

(١) يتألفه : يتتكلف ألفته ويداريه .

القوم : عمار بن ياسر ! فلذاك قتلوك يوم صفين ؟ ! قال عمرو :  
صدقتم والله لقد قتلناه !

كان عمار على رأس كتيبة يوم قتل ، وكان ذو الكلاع  
السميري من أصحاب معاوية على رأس الكتيبة المواجهة لعمار . فقتلوا  
كلّهم . وتحدث ابن سعد عن أصحابه أن عمرو بن شرحبيل  
أبا ميسرة رجلا من أصحاب عبد الله بن مسعود ومن خيرهم ، قال :  
رأيت في المنام روضة خضراء فيها قباب مصروبة فيها عمار ، وقباب  
مصروبة فيها ذو الكلاع . فقلت : كيف هذا وقد اقتلوا ؟ فقيل :  
وجدوا ربّاً واسع المغفرة .

## ٢٩

وأطرق القاص حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطلاقة طويلة .  
حتى ظن سمعوه أنه لن يقول شيئاً فهموا أن يتفرقوا ، ولكن رفع  
ليهم رأسه وتلا عليهم قول الله عز وجل : « وَنَرِيدُ أَنْ تَمْنَعَ عَلَى  
الَّذِينَ اسْتَضْعَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَنَّهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَنَّهُمْ  
وَنَعْكُنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فَرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجِبْرِيلَ هَمَا  
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » . ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة :  
صدق الله وعده ! لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضه ،  
وأدال لهم من قيسر وكسري<sup>(١)</sup> ، وجعلهم أمة للناس ما عاشوا .  
حتى إذا اختارهم بخواره وأثرهم بنيعه جعل ذكرهم خالداً ، وسيرهم  
رضاء ، وحياتهم قدوة صالحة وأسوة حسنة ؛ فهم أمة للمسلمين حتى  
يرث الله الأرض ومن عليها .

بيراكافا - مولان

سبتمبر سنة ١٩٤٩

(١) أدال لهم : جعل الكثرة لهم على الروم والفرس .



بين العمل والواقع كانت مسافة، منه ، مما يقتضي طولية أو مخالفة ولكن الأهم أن العمل أصبح واقعاً ملء ، مما جعله يختبر زوراً ، وهذا إكثار مكتبة الأسرة تحريرية مصرية حميمية بالجديد والمأكولة والتطور فخرجت عن حدود المجلة وأصبحت باعتراف مطamee المسنون تحريرية مصرية متفوقة تستحق أن تسرى في كل دول العالم النامي وأسعدتني انتشار التحريرية ومحاولة تعميمها في دول أخرى ، كما أتمنى كل السعادة لاحتضان الأسرة المصرية والحفاظ عليها واحتضارها ولهمها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة .

لأنه أضخم هذا المشروع علينا شاتينا له مضمونه وشكله وهدفه البسيط ورغم اهتمامات الوطنية الشروقية في مجالات كبيرة أخرى إلا أنها اعتبر مهرجان المرأة للجميع ومكتبة الأدب ، هي الإيقاع الكافي ، وبنجاح هذا المشروع كان سبباً هاماً لزيادة من المشروعات الأخرى .

وما زلت قادلة التوجيه تواصل اشتغالها بالمرأة الإنسانية ، تحت الرمح للكلمات مصدرها الأساسيات والثبات للثقافة ، متولى مكتبة الأسرة ، إصداراتها للعام التامين على التوالي ، تصنف ذاتها من خواص الإبداع الفكري ، الناطق والداعي وتترجم على مدى الأيام والسنوات رؤانا شخصياً لأهلى ومحببى ورماتلى أهل مصر المحروسة مصر العصارة والثقافة والتاريخ .

سوزان عمار

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

2001

معرض التراث العالمي

Bibliotheca Alexandrina



0399682

١٥٠  
قرش